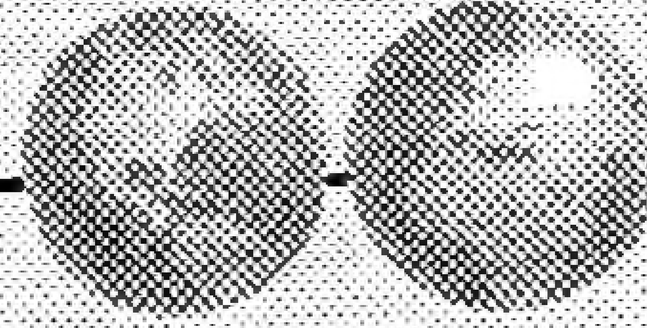
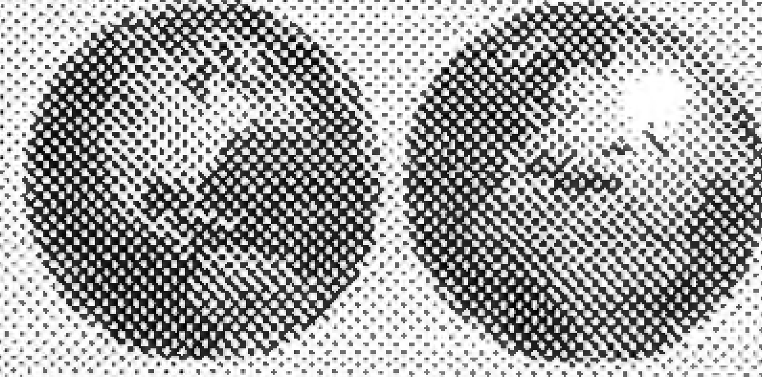
طبوعات أخبار اليوم
ع الثقافة



تائه فى لندن

محمد عفيفي

دار اخبار اليوم

قطاع الثقافة



دار اخبار اليوم
قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة
- القاهرة -
- تليفون - فاكس -
٥٧٩٠٩٣٠

الرسوم الداخلية بريشة الفنان

مصطفى حسين

الغلاف و التصميم الداخلى :

أحمد سامح





محمد عفيفى

تائه فى لندن !

محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

■ قطاع الثقافة ■

ما كدت أدخل بهو المطار حتى جلجل فى الميكرفون صوت نسائى يردد هذا النداء الغريب:

- مستر موهاميد آفيفى هوسين!

وحيث أن العبارة تبدأ بكلمة مستر فقد كان من الواضح أنها تردد اسم رجل ما، ذلك الاسم الذى خيل إلى أنه ليس غريبا عنى تماما.

- مستر موهاميد آفيفى هوسين!

هكذا كررت السيدة الانجليزية نداءها، ولم أحتج منها إلى أكثر من تكراره مرة أخرى لكى أنتبه إلى أنه لا يخرج عن كونه اسمى الكريم!

وكان طبيعيا أن يقترن ذلك الاكتشاف بخفقة قلب زائدة، لأنه كيف عرفت تلك السيدة أننى قد وصلت إلى لندن؟ واذا كانوا قد التقطوا لها اسمى من بين كشوف الركاب فلماذا ينادون على، وماذا يريدون منى؟!

هناك احتمال لأن يكونوا - لسبب أو لآخر - قد اشتبهوا فى أمرى وظنوا اننى قد حضرت بقصد إجرامى، كسرقة جواهر التاج مثلا، ولكننى رأيت أنه - بالنظر إلى صحيفة سوابقى - احتمال ضعيف جدا.. فلا يبقى إلا أن

يكونوا متابعين لكتاباتى، وأنهم ما برحوا ينتظرون وصولى لكى يحاولوا استدراجي للكتابة فى احدى صحفهم التى أرجو ألا تكون جريدة التايمز.. فمثل هذه الجريدة ذات الميول الصهيونية لا يمكن أن تلائم مزاجى، وأفضل منها بكثير صحيفة الجارديان ذات الميول المعتدلة والمنصفة فى كثير من الأحيان، الأمر الذى لا أظن سوف يجعلنى أتزحزح عن مائة جنيه استرلينى كثمن للمقال الواحد!

فقصدت إلى مصدر الصوت لأجد فتاة حلوة على رأسها برنيطة مضحكة، مضيفة أرضية عندها ورقة تركها لى أحد المعنيين بأمرى، صديق لى كان قد وعد بانتظارى فى المطار ثم علم هناك أن طائرتى سوف تتأخر عن موعدها عدة ساعات ولن تصل إلا بعد منتصف الليل، فرأى من الأفضل أن يعود إلى منزله لينتظرنى هناك بصحبة زجاجة سكوتش. فهى كما ترى فرحة لم تدم طويلا، وكانت وجيزة جدا تلك الفترة التى قضيتها فى «فليت ستريت».

وأحالتنى البنت إلى رجل من الجمرك قال لى:

ـ لماذا تزور لندن؟

هكذا سألنى موظف الجمرك وهو ينقل بينى وبين الباسبور نظرة متعبة تدل ـ بما لا يقبل الشك ـ على الموقف الاسترلينى العام. وكنت قد أنذرت من قبل بأننى سأواجه بهذا السؤال التقليدى فى جمرك لندن، ولذلك سليت نفسى فى الطائرة باعداد بعض الاجابات المبتكرة التى أرجو أن تزيل عن نفس الموظف المسكين ذلك الملل الذى لابد أنه يعانيه من طول استماعه لنفس الاجابات الرسمية المتكررة.

اجابة رقم ١ : لكى أتفرج على تغيير الحرس!..

اجابة رقم ٢ : لكى أطعم الحمام فى ميدان الطرف الأغر!..

اجابة رقم ٣: لكى أدعو سارة تشرشل إلى كأس!..

اجابة رقم ٤: لكى أتفرج على الجيوكوندا فى نسختها الأصلية!..

والمفروض بالنسبة لهذه الاجابة الأخيرة أن يقول لى الرجل:

- ولكن الجيوكوندا فى باريس لا فى لندن..

فأجيبه بقولى:

- هذا ما اكتشفته وأنا فى الطائرة!

فيضحك الرجل وسائر زبائن الجمرك، وأكون بذلك قد أثبت وجودى الفكاهى من اللحظة الأولى.

غير اننى لسبب أو آخر - لرهبتى للموقف فى أغلب الظن - لم أنجح فى التفوه بأى من تلك الاجابات، ولم أزد عن قولى فى حدة لا مناسبة لها:

- ألا تحب أنت أن تزور القاهرة؟

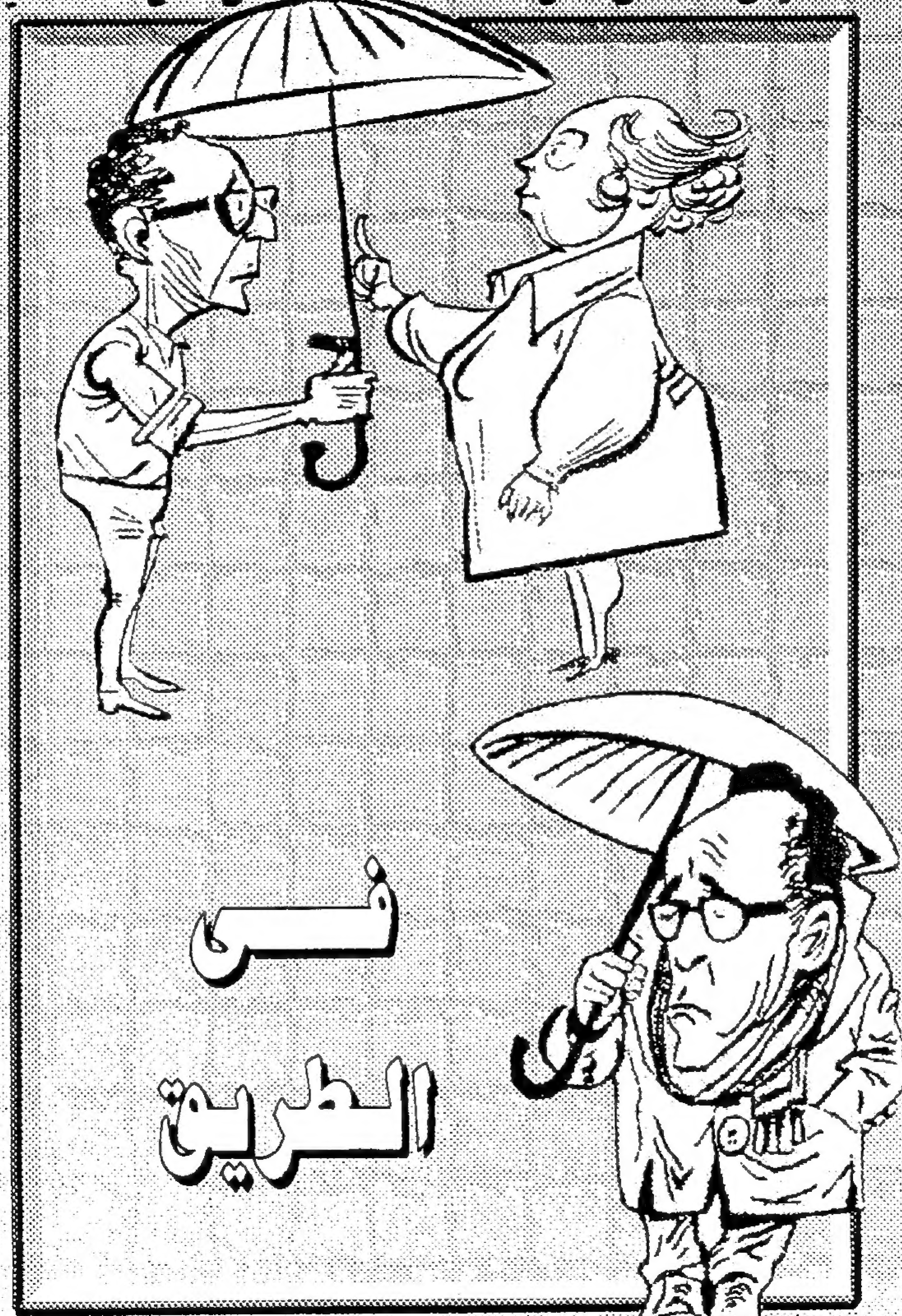
ففكر الرجل لحظة قبل أن يقول:

- ول!..

وهى المرادف الانجليزى لقولك بالعربية:

- يعنى!..

وبابتسامة جمركية باهتة وموزعة بينى وبين الزبون الذى ورائى، ناولنى باسبورى وهشنى إلى شوارع لندن.


محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى
فى
الطريق

فى انتظار تاكسى يحملنى إلى منزل صديقى رأيت أن أفوت تاكسيا بعد آخر، نافرا من تلك السيارات السوداء الكبيرة التى تمر بى، ومنتظرا أن يصل تاكسى مرسيدس محترم أو حتى نصر..!!

ولكن انتظارى طال دون أن يمر بى سوى تلك السيارات السوداء الكئيبة التى تبين لى فيما بعد انها هى النموذج الموحد للتاكسى اللندنى، والتى لا ينقصها سوى لافتة كتب عليها «تحت الطلب» لكى تتحول إلى سيارة من السيارات التى نخصصها عندنا لنقل الموتى!

وصديقى الذى سهر فى انتظارى صحبنى (لاحظ ترنحه الخفيف) إلى عمارة فى شارع هادىء قريب، خال من المارة حتى لتكاد تسمع فيه شخير النائمين. والعمارة ترتقى إلى بابها سلما حجريا من بضع درجات، والباب للأسف مغلق يحتم على أن يكون أول شىء أفعله أن لندن - يا للخجل! - هو ايقاظ السيد البواب!

فابتسم صديقى فى رثاء لسذاجتى الشرقية وأخرج من جيبه مفتاحا دسه فى الباب فإذا به ينفتح، واذا به يدخل وأنا وراءه وكأنه بيت أبينا! فلكل ساكن بالفندق - كما أفهمنى - مفتاحه الخاص بباب العمارة إلى جانب مفتاحه الخاص بحجرته، والبوابون نوع من الرفاهية التى لم تنجح الدول الغنية بعد فى استيرادها من الدول النامية!

- طيب والحرامية؟

هكذا سألت صديقى فقال انه من السهل بالطبع على أى انسان أن يدخل الفندق بمفتاح مستعار، ولكن الحاصل أن اللصوص الانجليز لا يميلون إلى السطو على المنازل مفضلين أن يتفرغوا للسطو على البنوك والقطارات.

- والدول النامية!

هكذا أضفت وأنا أصعد إلى حجرتى، وهناك هممت بأن أخلع ثيابى لولا ما تنبهت إليه من أن شيش النافذة مفتوح وليس ثمة ما يستر الحجرة سوى ستارة خفيفة تغطى زجاج النافذة. ولما كنت أرفض أن أعرض مفاتنى على الشعب الانجليزى بهذه السرعة فقد قصدت إلى النافذة لكى أقفل شيشها. ولكن هذا كان عملا مستحيلا تماما، لا لأن الشيش عصلج فى يدى أو ما شابه ذلك وإنما لأن النافذة لم تكن مزودة بأى نوع من الشيشان، مجرد لوحين من الزجاج تغطيهما - أو قل تفضحهما - تلك الستارة الشفافة المضحكة. فلابد أن صديقى - حرصا منه على فلوسى أو خوفا من أن أفلس واقترض منه - قد تعمد أن يختار لى هذا الفندق الرخيص الذى لا شيش له، الأمر الذى لا يترك لى مفرا من أن أبحث عن فندق آخر فى الصباح.

ولكننى لم أفعل ذلك بالطبع، وذلك لما أطلعنى عليه نور الصباح من أن كافة النوافذ فى كافة العمارات حولى من نفس النوع، مجرد لوحين من الزجاج تغطيهما تلك الستارة الفاضحة ونظرا لما اكتشفته فيما بعد من أن هذه حال المدينة كلها فقد فهمت أن الشيش هو الآخر - مثل البواب - من الرفاهيات التى لم تصل بعد إلى الدول الثرية.

وكان صحوى فى الصباح على شعاع شمس دافىء تسلل إلى سريرى من خلال الستارة الشفافة، الأمر الذى فهمت منه لماذا يرفضون تركيب الشيش للنافذة، وذلك لكى يستيقظوا مع شروق الشمس ولا تروح عليهم النومة مثلنا!. ومتمطعا تحت الشعاع الدافىء المبهج كرهت أولئك المغرضين الذين يشنعون على

العاصمة البريطانية ويقولون إنها بلد غير ذى شمس. ثم نهضت ولبست الرداء المناسب لهذا الصباح المشرق وهو البنطلون والقميص أو نص كم، ذلك الزى الذى لم أخرج به لسبب قد يبدو لك غريبا بعض الشىء وهو عدم موافقة صاحبة البيت؟

سيدة قصيرة بدينة مرحة معقوفة الأنف مكورة الوجه، ذكرتنى بأمى فى صباها فأدركت من البداية أنه من شبه المستحيل أن يكون لها من دور فى حياتى سوى دور صاحبة البيت! عن أسمى سألتنى وعن هويتى، متطرقة إلى سؤالى عما اذا كنت قد أخذت فكرة من صديقى عن الأجر الذى تتقاضاه من الزبون فى مقابل المبيت والافطار. وباطمئنانها على ذلك قالت:

- ماذا تحب أن أطبخ لك؟

وضغطت على كلمة «أطبخ» كى تفهمنى ان اعداد الافطار ليس لعبة كما قد يتوهم شرقى ساذج مثلى. فتمنيت أن أطلب منها أن تطبخ لى صحنا من الفول المدمس ولكننى تذكرت أن هذه رفاهية ثالثة لا يمكن أن تكون قد وصلت بعد إلى لندن.

- هل تحب البيض المسلوق؟

- أحبه!

أم تفضله مقليا؟

- لا مانع؟

- وهل تحب بيكون؟؟

فتفكرت فى الموضوع لحظة قبل أن أقول لها باسما:

- روجر أم فرانسيس؟

وانتظرت أن تضحك ولكنها لم تفعل، وتاريخ الفلسفة على العموم ليس من الأشياء التى يتوقعها الرجل المصرى عند صاحبة البيت الانجليزية، وقد رفضت

البيكون بالطبع لأننى لا أحب وأنا متجه إلى الجنة أن أجد خنزيرا يسد على الطريق!

ثم نظرت الحرمة السكسونية إلى ثيابى بنوع من الريبة وقالت:

- هل ستخرج هكذا؟

ولم لا.

- ربما تمطر!

- في مثل هذا اليوم الصحو؟ يا شيخة!

- كما تشاء!

واستدارت وخرجت لكى تطبخ لى الافطار المكون من بيضتين مسلوقتين وصحن من المربى وكوب من عصير فاكهة لا أعرفها. وانتهيت من إفطارى فوقفت أتفكر في تحذير السيدة لى بشأن المطر، أفليس من الممكن أن تكون الولية أدرى منى بجو بلادها؟ وسرعان ما أتانى الجواب من الخارج، إذ خيل إلى مدى لحظة أن الكهرباء قد انقطعت عن الحجرة لولا ما تذكرته من أننا في الصباح وليس ثمة مصابيح مضاءة. وعلى الغرفة زحفت موجة مفاجئة من اللون الرمادى القاتم، واذا بالمصباح الذى انطفأ هو المصباح الأعظم المسمى بالشمس! ورنين على زجاج النافذة لقطرات المطر التى بدأت تتساقط وتنزلق على الزجاج في خيوط طويلة متلاحقة. في غمضة عين تطايرت أوراق النتيجة - كما يحدث في السينما - من شهر أغسطس إلى شهر فبراير، ورعدة مفاجئة بدأت تسرى في بدنى تحت القميص ذى النصف كم! فأسرعت إلى البدلة ألبسها بدلا منه، وتمنيت وقد لبستها لو كان معى بلوفر أضيفه إليها، وياحبذا بكوفية أيضا!

وبينما أنا خارج رجوت ألا ترانى الولية لكى لا تشمت بى، ولكنها ضبطتنى ولسعتنى من بعيد بنظرة سكسونية ساخرة.

- جالك كلامى؟!

هكذا قالت لى قبل أن تضيف شارحة:

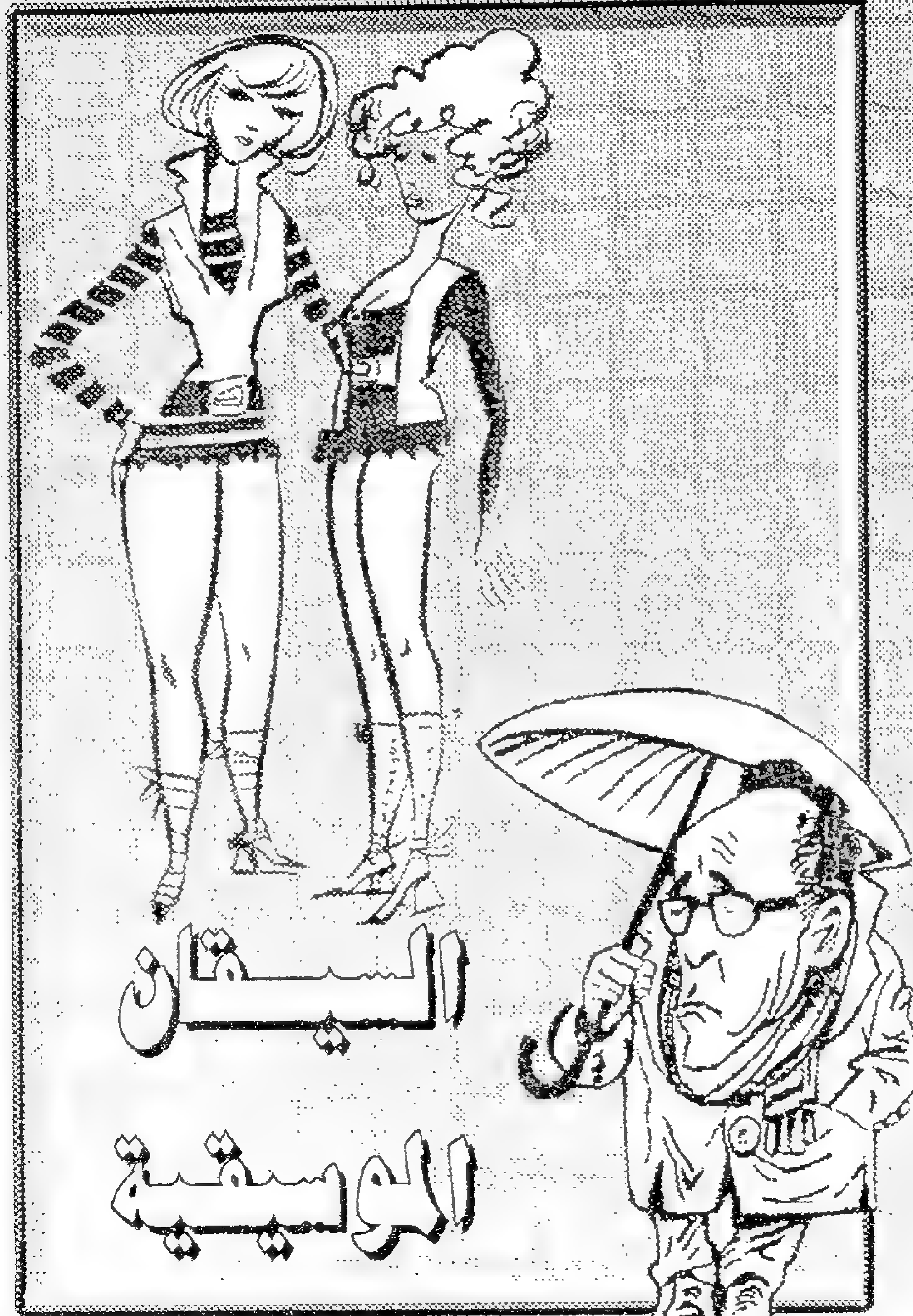
ـ ذس إذ لندن بونو؟

ورأتنى أقف عند الباب مترددا فى الخروج تحت المطر فقالت:

ـ هل تحب أن تستعير مظلتى اليوم؟

وضـغطت على كلمة «تستـعير» مخافة أن تتحول فى عقلى والعيـاذ بالله إلى تأخذ! كما ضغطت على كلمة «اليوم» مخافة أن تصبح استعارتى للشمسية عادة يومية! وعلمتنى كيف أفتح تلك المظلة العتيقة السوداء وكيف أقفلها، مخطرة اياى زيادة فى الفائدة بأن ثمنها ثلاثة جنيهات ونصف! وعند الباب وقفت أتهيأ لخوض التجـربة المبتلة، لحظة من التردد ثم تنحنحت بالحزم اللازم وخرجت، غير ناس بالطبع أن أرفع حـاجب السـخرية الأيسر بما يناسب رجلا يحمل المظلة فى شهر أغسطس! وتحت المظلة سرت متحديا للمطر المنهمر وشرعت فى رحلة التوهان فى شوارع لندن

محمد عفيفي ،تائه في لندن محمد عفيفي ،تائه في لندن محمد عفيفي



محمد عفيفي ،تائه في لندن محمد عفيفي ،تائه في لندن محمد عفيفي

كذكر شرقى أعترف بأن أول ما لفت نظرى فى الشارع اللندنى هو المينى جوب الذى يسمونه هنا بالمينى سكيرت، مع ازدياد فى الاهتمام من ناحيتى عندما يتحول إلى ميكرو جوب، مرتفعا إلى أعلى حتى يصل إلى مستويات ينسى معها أنه كان فى أى يوم من الأيام عند الركبة، وحتى يوشك أن يتحول مما فوق هذا إلى ما تحت ذاك! ونسمة لندنية عابثة تهب عليه فتعطيك فكرة عن حقائق الحياة ما كنت لتأخذها بغير شهادة من المأذون أو من كلية الطب!

مثل هذا اللباس لو ظهر فى الشارع القاهرى لبخلت عين أكثر من ذكر مصرى، ولالتوى أكثر من عنق، ولربما قامت مظاهرة طلابية تحتاج فى فضها إلى أكثر من سيارة نجدة. فلو أن ذكور لندن كانوا من نفس النوع لتوقفت الحياة هناك توقفا تاما، ولكان فى مقدور جيش أجنبى أن يحتل المدينة ويعلن الجمهورية بدلا من الملكية والشعب الانجليزى مشغول بالبحلقة! فليس ثمة بنت فى لندن لا تلبس المينى أو الميكرو، ذلك اللباس العصرى الذى صار بمثابة الزى الرسمى لأنثى البشر. وعلى الأرصفة تتواثب آلاف السيقان الطويلة البيضاء العارية، أشبه بمفاتيح البيانو البيضاء وهى تتماوج تحت أصابع روبنشتين.

وأنت فى لندن لا ترى السيقان السكسونية فحسب، بل إنها تعرض

عليك - لندن وبصفتها مدينة سياحية من الدرجة الأولى - كافة السيقان الغربية على مستوى حلف الأطلنطى والكومنولث! حاشا لله أن تحجب عنك فخذيها أنثى دون الثلاثين من العمر، أو دون الأربعين اذا أخذنا فى اعتبارنا قدرة معاهد التجميل الحديثة على إزالة آثار البعد الرابع. والعذرية بالطبع ليست شرطا لارتداء ذلك الثوب، فمع هذا الشرط ما كانت ترتديه أية أنثى من الغرب! بل يكتفى كما قلت أن تكون الأنثى فى شبابها، والشباب لا يتنافى مع أن تكون زوجة وأما لأكثر من طفل. ولقد رأيت كثيرا من الأمهات يدفعن عربات الأطفال بالمينى والميكرو، ذيول فساتينهن الرمزية تهفهف على رؤوس الأطفال السعداء فى جناتهم الصغيرة، والجنة كما تعرف تحت أقدام الأمهات!

محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

وبالطبع يزداد الأمر طرافة عندما تجلس لابسة ذلك الثوب أمامك، عارضة عليك من الثروة التشريحية ما لا شك أنه يضيع على العريس الغربى كثيرا من مباهج الاكتشاف فى ليلة الزفاف! ويمثل هذا الفستان جلست أمامى احداهن فى عربة المترو، وبالصعوبة المناسبة للذكر الشرقى نزعت بصرى عن محتويات الثوب السفلية ورفعته - بصرى طبعا - إلى وجهها حيث قابلتنى عينان زرقاوان واسعتان، فيهما قرأت ذلك المعنى الغامض الذى طالما حيرنى كلما نظرت إلى عيون النساء فى لندن، والذى يمكنك أن تقول - إذا أردت أن تحسم الأمر بسرعة - إنه نوع غير متوقع من الجرأة الحادة المقتحمة.

نعم هى جريئة جدا عيون إناث الغرب، جريئة وصريحة وحرة مع رجاء منى للقارىء ألا يشرع فى الشمشمة بأنفه الشرقى باحثا فى تلك الحرية الجريئة عن أية رائحة للجنس، فلرب نظرة حية متلصصة فى عين ناعسة شرقية تثير من ايحاءات الجنس أضعاف ما تثيره تلك النظرات الجريئة فى عيون بنات الغرب. فهى جرأة من نوع جرأة الرجل فى استطلاع ما حوله من الأشياء وفى تفحصها واطالة النظر إلى ما يثير اهتمامه منها، تلك الجرأة التى لا علاقة لها بالجنس من قريب أو بعيد. فلعلك تحتاج إلى أن تغوص فى أعماق الريف الغربى لكى تعثر على تلك النظرة الشرقية المتلصصة فى عيون البنات، تحت ظن منهن بأن تلك النظرات العصرية المقتحمة شىء يتنافى مع أدب الأنثى أو حتى مع شرفها.

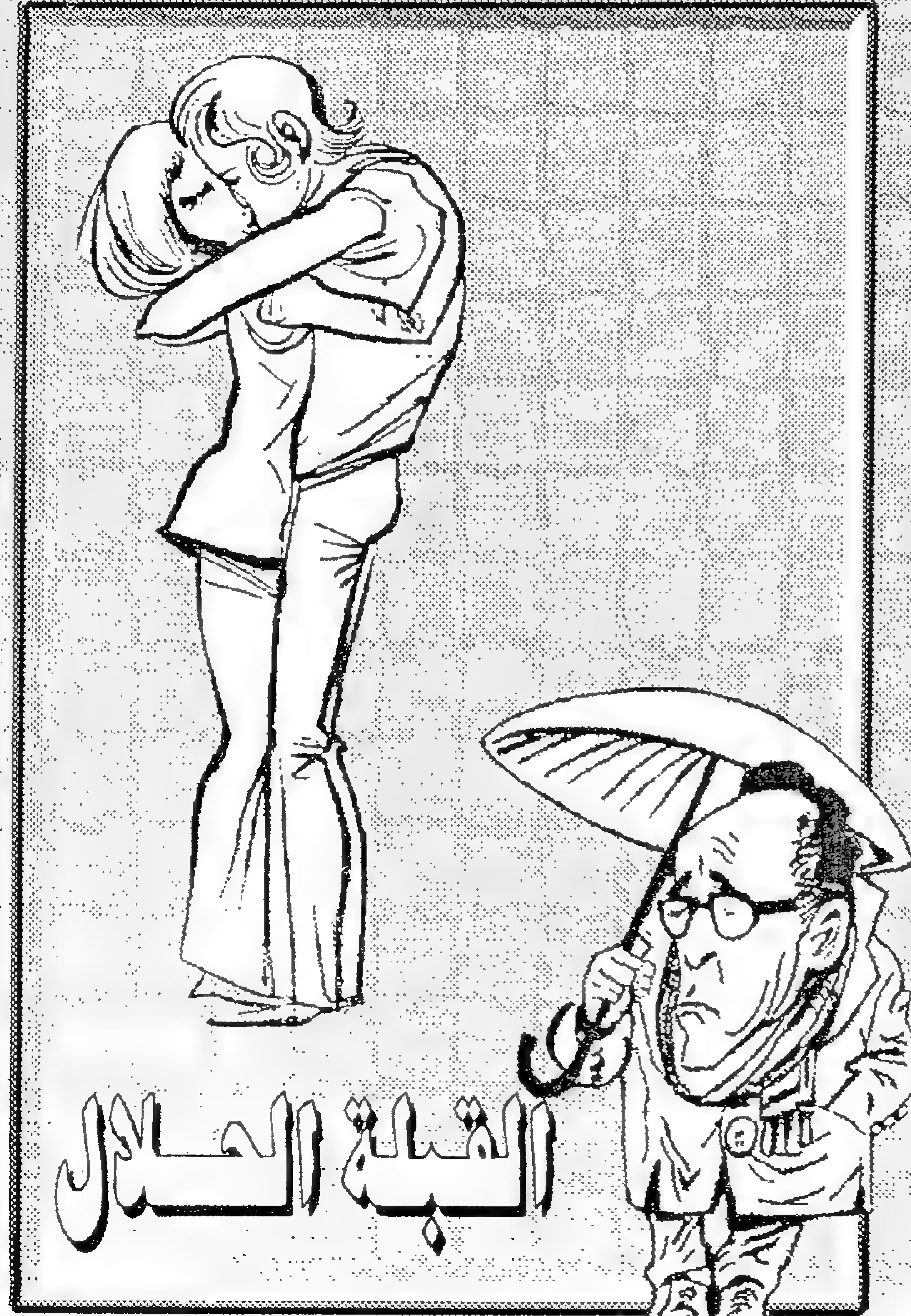
ومن حقيبة يدها أخرجت الفتاة علبة سجائر كنج ساين، ومن العلبة أخرجت سيجارة رشقتها ـ عقبال الحبايب ـ بين شفتيها، وسحابة من دخان عاطر غادرت صدرها وتسللت إلى صدرى لتداعب الشعب الهوائية الدقيقة فى رئتى. فلو أن شيئا من ذلك حدث فى ترام القاهرة لربما سرى ذلك الدخان فى نخاعى الشوكى حتى وصل إلى أصابع قدمى، متسببا فى صدمة غير متعمدة من حذائى لحذاء السيدة تحت الكرسى، على سبيل رد الفعل المنعكس الناشىء عن فكرة خاصة بشأن الأنثى التى تتعاطى الكيف فى مكان عام.

لكن منظر هذه المدخنة السكسونية كان مختلفا تماما، وما استطعت أن أقرأ فى تلافيف الدخان المتماوج بيننا أى شىء غير ما أقرؤه فى الدخان المنبعث من فم ذكر خرمان. بنفس البساطة التى أعالج بها سيجارتى تعالج هى سيجارتها، باصبعين طويلتين مخضبتين بمزيج من المانيكير وصفرة النيكوتين.

هى اشتاقت للسيجارة فأشعلتها، ماذا فى ذلك؟ ولماذا يكون من حقى ـ أنا الذكر ـ أن أنفخ دخانى فى وجهها دون أن يكون لها حق الرد بنفخة مماثلة؟ منطق معقول بغير شك وإن كنت أرجو ألا تستنتج منه اننى أشجع الحريم على التدخين فى الأماكن العامة أو فى أى مكان اخر، فلاشك أن مدخنة شرهة من هذا النوع سوف تنخرط كل صباح فى نوبة من السعال والبصاق بصورة مزعجة لزوجها، بل ومزعجة لصديقها إذا تصادف وجوده فى تلك الساعة المبكرة.

ومن خلال الدخان رأيت فى العيون الجريئة نظرة أقرب إلى أن تكون زغرة، اذ طال تفرسى فى وجهها بما أوقعها فريسة للظنون، متوهمة اننى أرمى بنظراتى المتطفلة إلى أكثر من الدراسة الباردة لما هو متمثل فيها من نموذج للأنثى البشرية المعاصرة فى شمال غرب أوروبا.

محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى ... فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

فى المترو قبالتى شاب و فتاة يتبادلان حديثا لم أفهم منه للأسف حرفا واحدا. فقد كنت محتاجا إلى أن أحضر إلى لندن لكى أكتشف ان الانجليز لا يعرفون الانجليزية، أو على الأقل لا يعرفون الانجليزية التى أعرفها أنا عشرات من التعبيرات الدارجة التى لا يلزمك لكى تفهمها أن تكون انجليزيا فحسب بل وأن تكون جاهلا أيضا. بالاضافة إلى ذلك الموقف الغريب الذى يتخذونه من حروفهم، معتقدين أنها قد صنعت لتؤكل لا لتنطق!

فلعلهما أشفقا على من عدم الفهم - ذلك الشاب وفتاته - وقررا أن يتكلما باللغة التى لابد أن أفهمها مهما كنت غير انجليزى، اذ طوق الشاب خصر صديقته بذراعه وضمها إليه وأطبق بشفتيه على شفتيها، وهات يابوس!

أصارحك القول بانني لم أصدق عينى فى أول الأمر، ولذلك أخرجت منديلا أمسح به نظارتى قبل أن ألقى نظرة ثانية. وتلك النظرة الجديدة أكدت لى نفس الشىء، إنه ليس من شك فى أن هذا الولد يقبل هذه البنت، وانه إذا كانت بينهما مباراة فى عدد القبلات فالبنت هى الغالبة طبعا! علنا يمارسان أمامى وأمام الجميع هذا العمل الذى نسميه فى القاهرة بالفعل الفاضح ونعاقب عليه

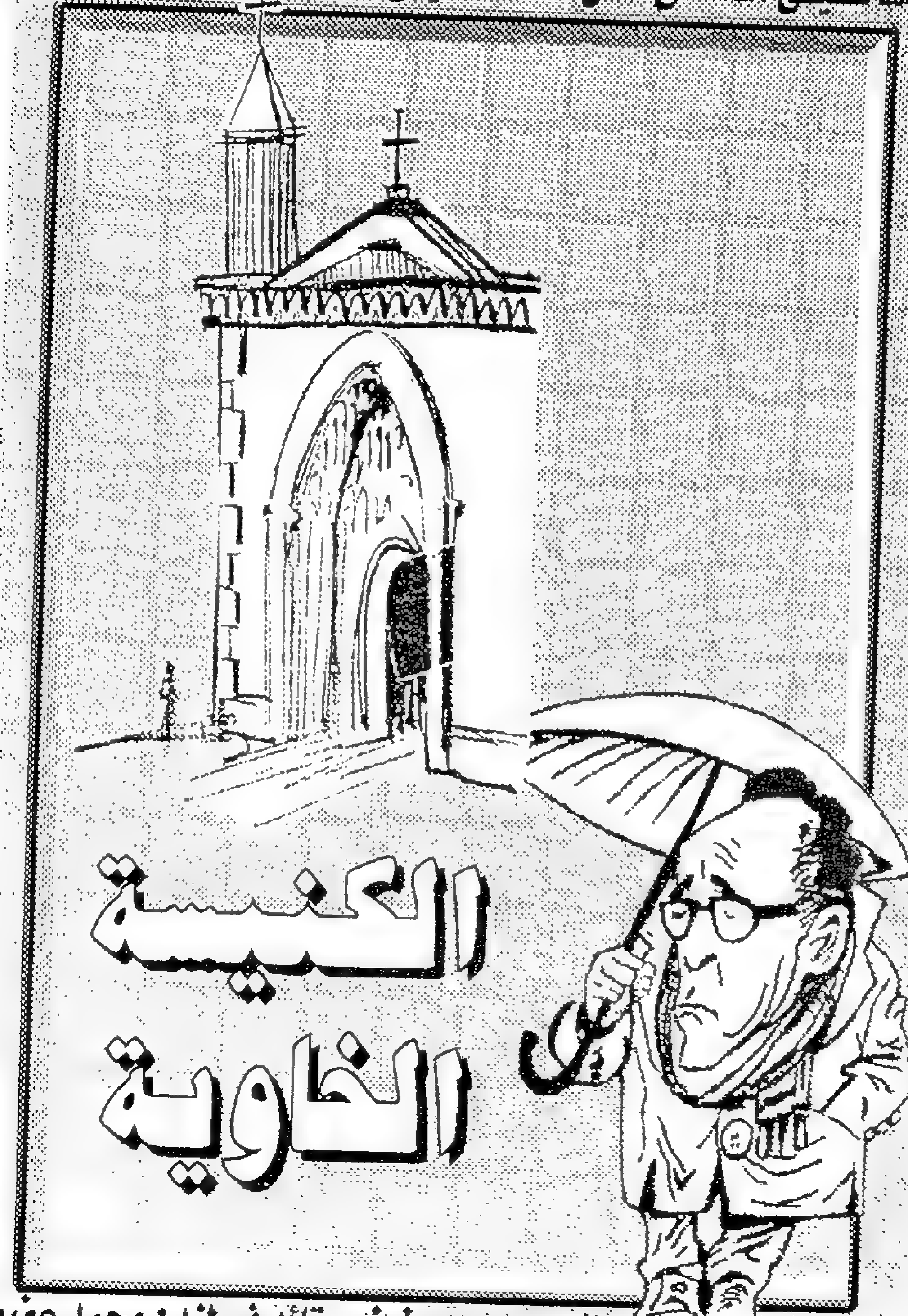
بالحبس مع الشغل، تلك العقوبة التى لا أظن أنها سوف تطبق بالنسبة لعاشقين من هذا النوع الجرىء. فلكى تطبق عليهما يجب أن يؤخذا أولا إلى القسم ثم إلى المحكمة، وهو ما يستبعد حدوثه بسبب أنهما سيؤخذان قبل ذلك فى أغلب الظن إلى المستشفى! وهذا اذا لم يموتا فى الطريق إليه متأثرين بمئات الجراح التى ألحقتها بهما عشرات الأيدى التقية الطاهرة.

لذلك رحت أتلفت حولى إلىَ وجوه الركاب لكى أعرف وقع الأمر عليهم، ولكى أرى ما هى الاجراءات التى يزمعون اتخاذها وفقا للطريقة البريطانية. فوالله يا أخى - والله! - ما طرفت لواحد منهم عين ولا اهتزت فى دماغه شعرة. كأنما هذا الشاب لا يقبل الفتاة وإنما يكلمها فى السياسة مع تأييده التام للحكومة لا للمعارضة! لا أحد فى العربة كلها همه الأمر سواى، الأمر الذى جعلنى أنزع بصرى عنهما بسرعة وأشيح بوجههى (لاحظ احمراره) مخافة أن تطول حملقتى إلى القبلة فأكون أنا وفقا للتقاليد المحلية مرتكبا لجريمة الفعل الفاضح. وبانتهاء تلك القبلة (٥٠ ثانية) عادا يدردشان وكأن شيئا لم يكن، نحو من دقيقة كانت كافية فيما يبدو لفوران العاطفة من جديد فإذا بهما مرة أخرى يتلاحمان، وهات يابوس!

فيبدو أن القبلة البشرية قد فقدت فى المجتمع الغربى كل ما يحيط بها فى المجتمع الشرقى من شحنات أخلاقية، وأضحت مجرد ظاهرة بيولوجية مثل تناول الطعام. وبما أن هذين الشابين أصغر

.ـنا من أن يكونا زوجين أو حتى خطيبين، فيبدو أن الجنس كله قد صار تلك الظاهرة البيولوجية التى لا دخل لها بفلسفة الأخلاق. ولاشك أن هذا أمر غريب الحدوث فى مجتمع يفترض فيه أنه مسيحى، وتعاليم المسيحية كما تعرف الجنس كله بالنجاسة حتى فى حدود الزواج، غير متحملة إياه إلا بوصفه شرا لابد منه لبقاء النوع، تماما كالاخراج (الفسيولوجى لا السينمائى!) الذى هو شر لابد منه لبقاء الفرد.

ولكن المسيحية فيما يبدو قد انزوت فى المكان الوحيد المتاح لها فى أوروبا الصناعية وهو الكنائس، جالسة فى صبر طيب تنتظر زوار يوم الأحد.


محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى
الكنيسة
الخاوية
محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى

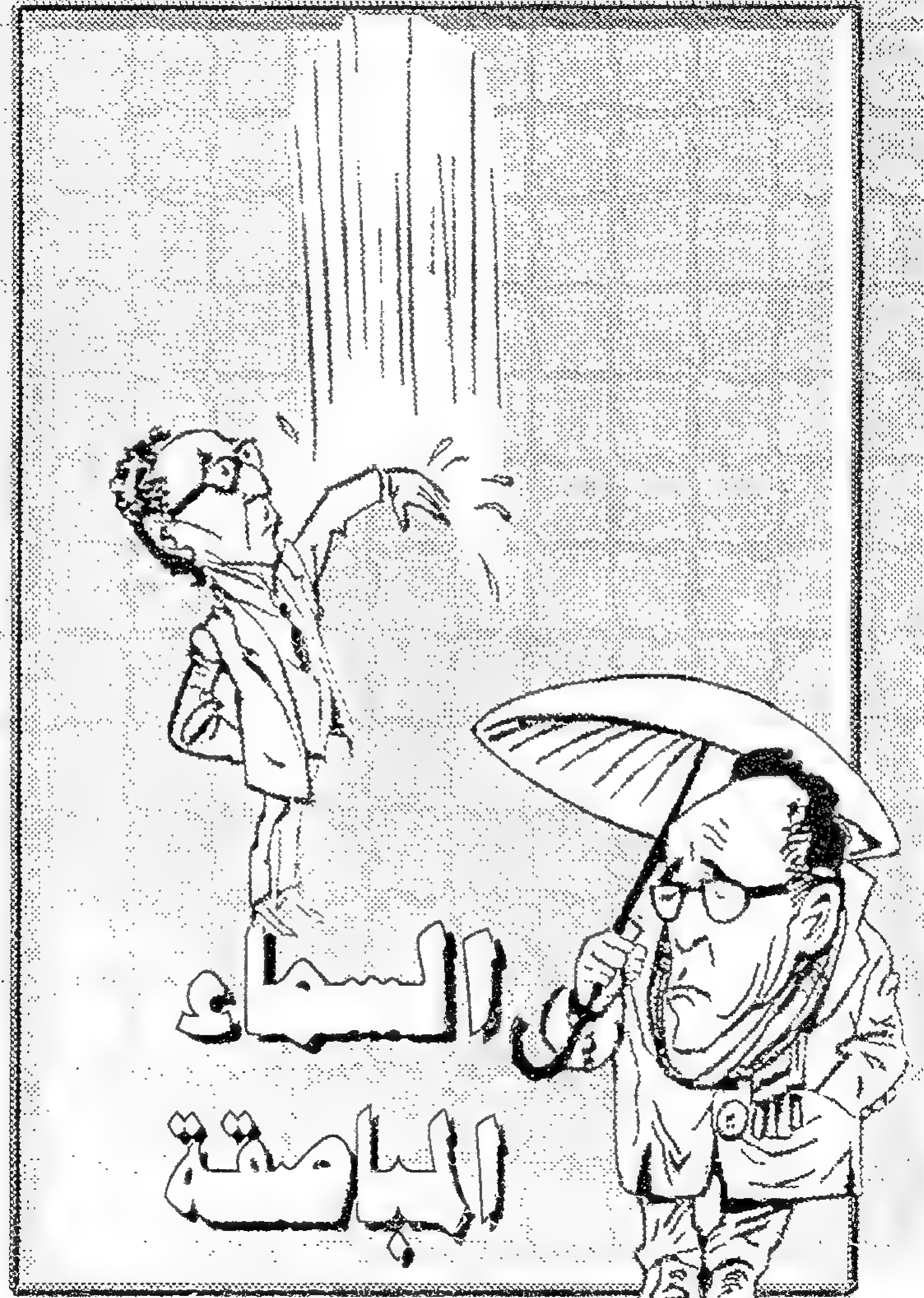
وهم للأسف ليسوا كثيرين أولئك الزوار، إذ تعبت ذات صباح فجلست على أول دكة قابلتنى، وكانت الدكة بالمصادفة بالقرب من باب كنيسة والوقت صباح الأحد. هناك جلست شاكرا تلك المصادفة التى ستتيح لى فرصة الفرجة على أتقياء الانجليز وخاصة اذا كانوا تقيات. فلا شك أنه مما يفيدنى أن آخذ فكرة عن العلاقة بين طول فستان البنت ودرجة تقواها، وعن الوضع الحقيقى للمينى والميكرو فى فلسفة الكنيسة البريطانية الحديثة.

لكننى للأسف لم أر أى شيء. نصف ساعة كاملة مضى علىّ هناك وما من تقى دخل إلى الكنيسة أو تقية خرجت منها، كأن هذه الكنيسة ليست كنيسة وكأن اليوم ليس يوم أحد. وقسيس ضئيل الجسم برز عند الباب وراح يتلفت حوله، أحمر الوجه وديع السمات وفى نظراته معنى من الشعور بالاحباط. هنا وهناك يتلفت حتى استقر بصره علىّ، ومدى لحظة خيل إلى اننى رأيت فى عينيه نظرة مناشدة. فخطر لى أن أجبر بخاطره وأنهض للصلاة، لكننى تذكرت اننى سوف أخطيء لا محالة فى أداء الطقوس، فيكتشف الرجل أمرى ويظن اننى أرمى إلى السخرية منه، وأكون بذلك قد أسأت إليه وأنا الذى ما رميت إلى شيء سوى الاحسان. فهو معذور بغير

شك ذلك القسيس الآخر الذى قرأت ذات يوم أنه ألحق بكنيسته فرقة من موسيقى الجاز على أمل أن تغرى الشباب بالحضور إلى الكنيسة حيث يجمعون بين متعتى الصلاة والرقص، تلك التجربة التى أميل إلى الظن بأنه قد فشلت بسبب ما لابد أن الشباب قد عانوه من الحرج وهم يرقصون تحت تمثال المسيح المصلوب.

فلاشك أنها محنة يعانيها رجال الدين فى انجلترا القرن العشرين، حيث زال آخر أثر للأبرار والمتطهرين الذين كانوا يقتلون الرجل بسبب أصغر شبهة توحى بأنه ليس متطهرا مثلهم. فإذا استمرت الأمور تسير فى هذا الاتجاه فلن استبعد أن يأتى يوم تحذو فيه الكنيسة الانجليزية حذو سائر المؤسسات هناك، وذلك بأن تقفل أبوابها فى أيام الأحد!

محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى

وأنا أعرف لماذا كف الانجليز عن التطلع إلى السماء، وذلك لانك لن تجد منظرا أبغض من منظر السمـاء الانجليـزية! خـيـمـة من السحب الرمادية تخيم طول الوقت على سماء لندن، كئيبة مقبضة تملأ النفس بكراهيتها وكراهية الحياة كلها.. وفجأة يتحول اللون الرمادى إلى ما يشبه اللون الأسود، وتدوى طبول الرعد ويبدأ المطر يتساقط، وأرجو أن تكون قد ابتسمت عند كلمة «يتساقط» باعتبارها نكتة! فكلمة يتساقط توحى بشىء من الايقاع اللطيف الذى يقترن بأمطارنا، أما هنا فى لندن فهو يهطل وينهمر وينسكب ويندلق إلى آخر ما يخطر لك من الأفعال المغرقة.

فـأقل مـا يوصف به أنه مـهـين للكرامـة البشـرية، ذلك المطر الانجليـزى الوغد. كـأن السمـاء تبول على الأرض أو كـأنـهـا تريد إعلان رأيها فى الجنس البشرى ببصقة كبيرة مركزة. فلا عجب أن ابتدع الانجليز ذلك التعبير عن السماء التى تمطر قططا وكلابا، وما اختاروا فى أغلب الظن تلك الحيوانات اللطيفة إلا احتراما لأسماع العيال. فهى فى الحقيقة تمطر ثعابين وعقارب وحلاليف وتيوس!

ورياح مـثلجة تعصف حولى وتنفذ كـالسم فى عظامى، أمشـير المصرى نفسه لا يعد شيئا بجانب هذا الأغسطس الانجليزى. فلابد

أن أجلس ذات يوم لكى أكتب بحثا عن العوامل السيكوطقسية الكامنة وراء انتشار الانجليز فى الأرض وتكوينهم للامبراطورية. هم كانوا يريدون الخلاص بأية طريقة من جو بلادهم المنحط، ولعلهم ما كانوا يطلقون رصاصة واحدة لو وافق أصحاب القارات المشمسة على منحهم تأشيرة دخول!

فلو طاوعت نفسى المصرية المشمسة لحبست نفسى فى حجرتى وعدت إلى القاهرة لكى أكتب مقالا واحدا عن الفندق الانجليزى! لكننى بالطبع يجب أن أرى لندن، والحمد لله أن الفلوس التى فى جيبى تسمح لى بشراء شمسية مستعملة.


الخضرة
الخضراء

شعور بالعباطة التامة ساورنى حيث سرت فى شهر أغسطس رافعا فوق رأسى تلك المظلة السوداء المضحكة، تحت تلك الخيمة الرمادية المقبضة. وشعور آخر بالفتنة إزاء الخضرة الخضراء فى حديقة هايد بارك، التى هى نتيجة الحمامات السماوية المتواصلة منذ قرون طويلة.

وحدى هناك حيث أن اليوم ليس من أيام الأحد، ورقعات من الحشائش الخضراء - كم هى خضراء! تترامى أمامى إلى مدى الشوف، محدودة هنا وهناك بكتل خرافية من الشجر الأخضر العتيق. ستمائة وأربعون فدانا انجليزيا كما يقول لى الكتاب السياحى الصغير، ولذلك وصفها السياسى البريطانى وليام بت بأنها رئة لندن، ذلك التعبير الذى لا أدرى لماذا تصر على ترديده كافة الكتب السياحية، وربما كان ذلك لما فيه من ابتذال يصل به إلى درجة الصدق التام. فبغير هايد بارك واخوتها من حدائق لندن لاختنق الناس وسط دخان المصانع المحبوس تحت تلك الخيمة الجاثمة على المدينة.

ومن جماع تلك الخضرة الخضراء وذلك الاتساع الرهيب فى تلك الحديقة الفذة ينشأ فى نفس المرء احساس لا مفر منه بالضخامة والجلال، واحساس لا مفر منه هو الآخر بالمرارة. اذ يخيل للأذن

المرهفة أنها تميز فى حفيف الرياح الباردة عبر الحشائش وبين أغصان الشجر شيئا كالأنين، لآلاف الأرواح التعسة التى طلعت ذات يوم فى كل قارة من القارات الخمس أمام بنادق المستعمرين المتعطشين للدماء، ولأرواح كثير من الانجليز أيضا. اذ كانت هايد بارك ذات يوم - كما تقول الكتب السياحية - ميدانا للمبارزة بين المأفونين من النبلاء، ومباءة للسفاحين وقاطعى الطريق، ومصبا للعنات الرهبان الذين كانت الحديقة موقوفة عليهم حتى انتزعها هنرى الثامن ضمن ما انتزع منهم بقصد قطع دابرهم. غير أن الملكة كارولين - زوجة جورج الثالث - ما لبثت كما يحكون أن طهرتها وحولتها من غابة إلى حديقة، فى الأثناء التى كان زوجها مشغولا فيها بقمع الثورة الأمريكية توطئة لأن يجن.


محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى
عصافير
الليل
محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى، تائه فى لندن محمد عفيفى

عند ذكر هايد بارك سوف يتجه ذهنك بالطبع - أنا عارف ذهنك كويس! - إلى ما ترتبط به تلك الحديقة في جرائدنا من حرية جنسية تتفاوت درجاتها وفقا لمزاج رئيس التحرير. فلعله مما يفجعك أن تعلم أنني ذرعت هايد بارك أكثر من صباح دون أن أرى أي نوع من القبلات - لا ياربي رأيت ذات صباح قبلة واحدة خاطفة! - فلعل السبب في ذلك أن الناس يكونون في ذلك الوقت في أعمالهم، أو لعل التقبيل الصباحي مفضل هناك في حديقة ريجنت، حيث لمحت في نهاية الحشائش الخضراء المترامية شخصا راقدا هناك ثم استوى جالسا فاتضح انه ليس شخصا وإنما شخصان!

غير أن الموقف يبدأ في التحسن بالطبع حين يذبل ضوء النهار، اذ سمعت ذات يوم بعد الغروب - هناك حيث جلست على كرسي طويل من القماش ايجاره بالنهار تسعة بنسات - صوت زقزقة لعصفور سيء الخلق بدليل تأخره في النوم إلى ذلك الوقت، ثم تبين لي أنها طرقعة لقبلة بين شبحين يجلسان غير بعيد مني على مقعدين متلاصقين بالدرجة المناسبة. فلربما كان التقبيل الليلي هناك راجعا إلى العوامل الاقتصادية البحتة، باعتبار أن القبلة مهما كان نوعها - ولاسيما بعد تخفيض الاسترليني - لا يمكن أن تساوي ١٨ بنسا!

ولقد كان يسرني أن أمكث هناك بعض الوقت لكي أرى كيف تتطور الأمور بعد حلول الظلام الكامل، ولكنك تلاحظ أنه قد مضى ربع

ساعة من الزمان قبل أن ينزل أى نوع من المطر! وتحت ذلك المطر اللندنى الذى انهمر فجأة كان من الصعب على أن أرابط فى الحديقة مهما بلغ نبل ما عندى من مقاصد الاستكشاف. وحتى لو تحديت الأمطار وبقيت، فلاشك أن منظرى حيث أجلس هناك تحت الشمسية لن يكون منظرا مريحا للرأى العام اللندنى خاصة أنا لا أقبل أحدا!! سوف يظنون اننى مجنون هارب من مستشفى المجاذيب أو عاقل فى طريقى إليه، أو ا ننى «توم» بصاص يتنكر تحت اسم محمد، أو أننى لص انتظر لحظة انسجام بين زوج من العشاق لكى أسرق قطعة من ثيابهما، وهذا بالطبع ما لم أكن رجلا من بقايا المتطهرين يفكر فى ذبح المذكورين لكى يكسب شيئا من الثواب.

ومهما كان من أمر - ومهما اشتد الظلام - فلست أظن أنه كان يوجد هناك أى نوع من العشاق، مستبعدا جدا أن يحلو الحب للناس تحت ذلك المطر الوغد الذى لا أشك فى أنه كفيل باطفاء أشد العواطف التهابا. وحتى لو وجدت تلك العاطفة التى تصمد لذلك المطر فدواعى المحافظة على البقاء سوف تحتم على العاشق رفع الشمسية فوقه وفوق معشوقته، ولست أظن أنه موجود فى لندن - بالرغم من كل ما فيها من التقاليع - ذلك العاشق الذى يطيب له أن يحب بيد واحدة.

مثل هذا التهور العاطفى قد كان يمكن أن يكون مفهوما لو لم تكن هناك اتوبيسات أو قطارات لها سقوف تظلل الحب من المطر، أما مع وجود تلك التسهيلات العصرية فليس ثمة غير عاشقين مجنونين يختاران هايد بارك حيث يتحابان ويستحمان فى وقت واحد. ولعل هذا هو السبب فيما قيل لى من أنه كان لهايد بارك سور أزالوه فى العهد الأخير، فما لزوم ذلك السور بعد أن صارت لندن كلها هايد بارك!؟


محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفو
عواطف شرعية
محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفو

حتى الكهول قد سرت إليهم عدوى تلك القبلات العلنية فى الاتوبيس كرهوا فى أغلب الظن أن يظهروا أمام الناس أقل اقبالا على الحياة من أبنائهم. أكثر من كهل رأيته هناك يضم زوجته إليه ويقبلها، ليوهمها أو ليوهم الناس بأن حرارة حبهما أقوى من أن تطفئها رياح الزمن. وطفل لواحد من أولئك الكهول رأى ذلك المنظر فهب من مقعده، وخف إلى مكان الحادث بالسرعة الأوديبية المناسبة، مادا شفتيه نحو السيدة يطلب نصيبه من الوليمة!

ولقد سألت صديقا مصريا مقيما هنا عن السبب فى هذه العواطف الشرعية المتطرفة فقال إنها لا تخرج عن كونها رشوة يقدمها الكهل لزوجته وهما عائدان إلى البيت بعد السهرة، كنوع من الساندويتشات العاطفية التى يطعمها اياها فى الطريق، حتى اذا ما ضمهما المنزل لم تطلب العشاء!

ومهما كان من أمر فأصارحك القول بأننى ازاء هذه المظاهرات التقبيلية بدأت أشعر بالخجل الشديد من نفسى، ماشى كده كالبجم دون أن أبوس أحدا! فلو أن معى فلوسا لاستأجرت احداهن لكى أقبلها كلما وجدت نفسى وسط الناس، لا لشىء والله سوى أن أثبت لأهل الغرب اننى لست أقل تقدما منهم!



عدة نظرات مختلسة شبه خائفة وجهها إلى ركاب المترو قبل أن يسمح لمؤخرته بأن تستقر على المقعد بينهم، ذلك «الأفندى» الانجليزى التقليدى بجاكته المحبوكة الرمادية المخططة، المفتوحة عن صديرى رسمى ذى عدد من الأزرار يكفى خمسة صديريات، والقبعة المضحكة التى يبدو كأنه يحملها فوق رأسه أكثر منه يلبسها، وجريدة التايمز التى نشرها على حجره وتظاهر بالانهماك فيها كأنه لا يشعر بأحد مما حوله.

ـ البلد ذاهبة إلى الكلاب!

هكذا سمعته يقول فى ذهنه السكسونى القديم، وأصارحك القول بأننى عذرته، بالرغم من علمى بأننى واحد من أولئك الكلاب!

فلاشك أن ذلك اللندنى التعس قد فقد كل شعور بالحرية وبأنه فى بيتـه وسط كل هذه الأفـواج من السـيـاح والمهـاجـرين، هـناك حـيث يجلس منفعصا بين عملاق أسود يذكرك بمحمد على كلاى، وهندى ذى عمامة بيضاء تتناقض مع سكسوكته المشذبة السوداء، وأنثى من أعماق افـريقيا فى ثوبـها الوطنى المزركش بألوان صـارخة فى جرأة يحسد عليها كل منهما، وفتى فرنسى كث الشعر والسوالف يضع حذاءه على المقعد المقابل فى وقاحة لاتينية مزعجة، وايطالى يحكى لصاحبته وبأعلى صوته نكتا يبدو من طريقة ضحك الفتاة أنها بذيئة، ولا تلك الشلة من الأمريكان الذين يؤكدون ـ على مسمع من الأفندى التـعس ـ ان قطارات الأنفـاق فى لندن لا تعـدو كـونهـا شيئا بدائيا اذا قورنت بأنفاق نيويورك. وهذا غير الألمان والصينيين واليابانيين والسنغال، والناطقين بالانجليزية الذين وفدوا من كندا واستراليا وجنوب افريقيا، ومن أقاليم بريطانيا مثل أهل الريف عند توافدهم على القاهرة فى مولد السيدة، دعك بالطبع من المصرى الذى جلس يحـملق إليـه برذالة غـيـر مـألوفـة لكى يكتب عنه هذه السطور! فقد احتجت إلى اسبوع كامل لكى أكتشف أن نصف من اصطدم بهم فى شوارع لندن ليسوا من أهلها، وأن لندن قد تحولت من عاصمة امبراطورية إلى ما يشبه حديقة الحيوان عندنا يوم شم النسيم. فبعد أن قضى الانجليز قرابة قرنين من الزمان وهم يبيعون منتـجـاتهم فى كـافـة أنحـاء الأرض بقـوة السـلاح، وبعـد أن جـرى للسلاح ما جرى، لم يجدوا أمامهم طريقة لاستثمار لندن سوى أن

يؤجروها مفروشة! مثل النبيل الذى تهدده مصلحة الضرائب باشهار افلاسه فيزيل الأسلاك الشائكة من حول قصره ويحبس الكلاب المفترسة، ويفتح الأبواب لكل من يحب أن يتفرج على أمجاد التاريخ بعد أن يدفع للبواب ثمن التذكرة!

ومن المؤكد أن فى لندن أشياء كثيرة تستحق أن يتفرج عليها الانسان، حتى بعد أن نسقط من حسابنا تغيير حرس الملكة والبلطة الأثرية التى قطعت بها رأس آن بولين بأمر من زوجها هنرى الثامن، بعد أن كان قد طلق فى سبيلها زوجتة الأولى كاترين مضطرا فى ذلك إلى تحويل بريطانيا من الكاثوليكية إلى البروتستانتية. ذلك أن لندن تتميز على سائر المدن السياحية بخاصية فريدة حقا، وهى أنه المدينة الوحيدة التى يمكنك أن ترى فيها - أيا كانت جنسيتك - شيئا كان ذات يوم عندك أنت!

محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

من البداية أحببت ميدان ترافلجار، وربما كان ذلك بسبب اسمه الذى هو تحريف غربى لكلمة الطرف الأغر بالعربية، فالميدان يتوسطه تمثال القرصان البريطانى نلسون الذى خطف رجله ذات يوم - منتزعا نفسه بسهولة غير متوقعة من أحضان ليدى هاملتون - إلى بحار أسبانيا لكى يحطم أسطولها فى الموقعة التى يسمى الميدان باسمها. وقبل ذلك كان قد زارنا فى أبوقير حيث تربص للقرصان الآخر نابليون، وبسرعة حطم أسطوله تاركا له الخيار بين أن يتجنس الجنسية المصرية ويدفن عندما يموت فى جبانة الشاطبى، أو أن يستأجر من أحد أبى أحمدات الأنفوشى قارب صيد يعود به إلى فرنسا بقيادة بحار فرنسى تمكن من أن ينفذ

بجلده من مدافع نلسون وخرج إلى الشاطىء متعثرا وهو لا يدرى فى حجر رشيد.

غير أن الأغلب اننى أحببته بسبب الحمام، آلاف الحمائم التى تنتشر حول تمثال القرصان الكبير، أشبه بالنحل عندنا فوق عربة البلح الأمهات، ومئات السياح مجتمعون هناك فى كل ساعة من ساعات النهار، حتى حين يهطل المطر وترتفع المظلات فوق الرؤوس، فيصبح الميدان - لو انك نظرت إليه من فوق عمارة عالية - أشبه بحقل فسيح تغطيه نباتات عش الغراب، وهم طول الوقت عاكفون على اطعام الحمام بالحبوب التى يشترونها من كشك خاص فى مقابل ستة بنسات للكيس، تلك البنسات التى لا أعرف هل تستقر فى جيب صاحب الكشك أم فى خزينة شركة مساهمة تحتكر حق اظهار العطف على حمام الطرف الأغر.

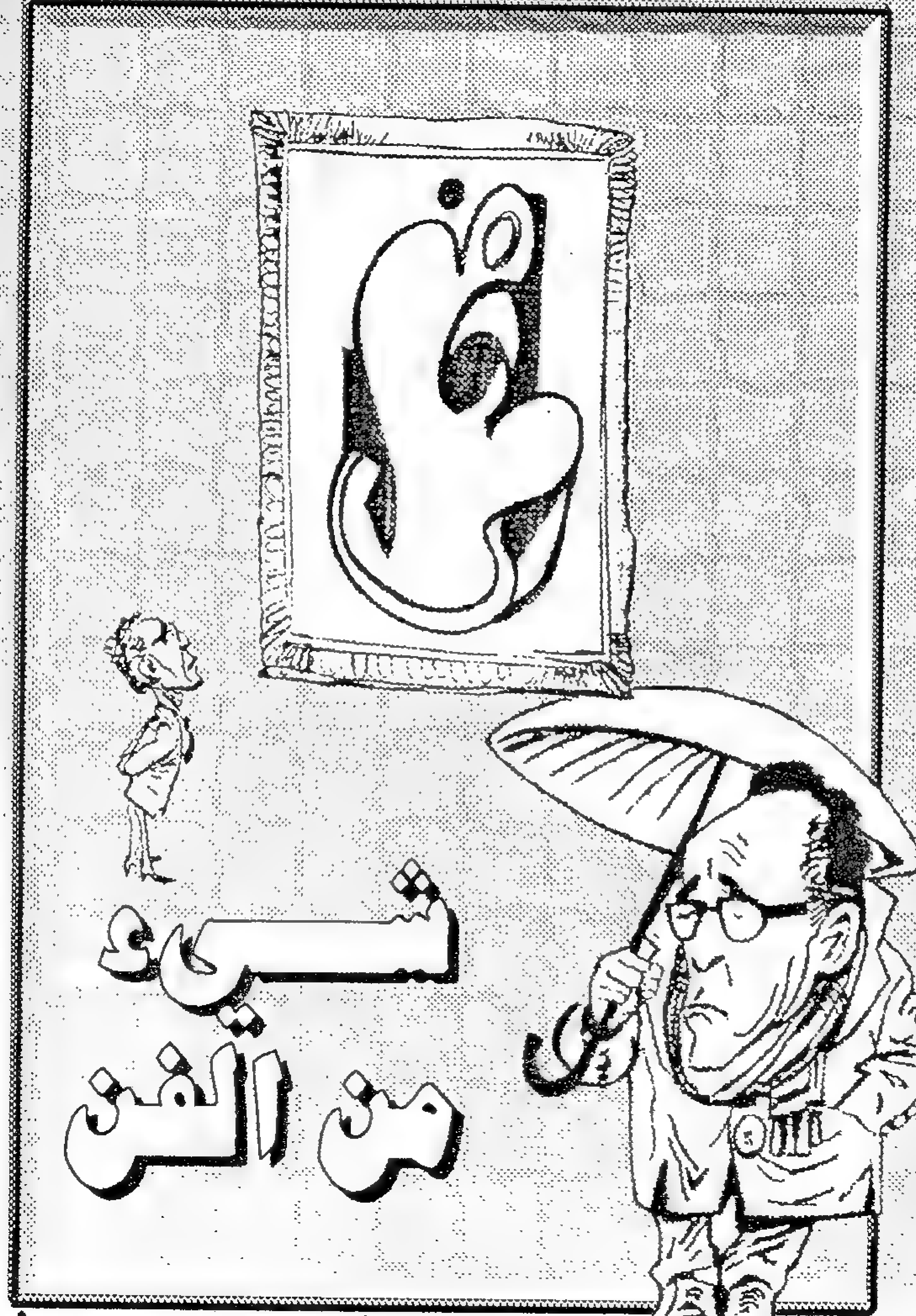
لاشك أنه منظر دافىء يوحى بما يعمر قلوب البشر من حب كامن لمخلوقات الله. ومن قدرة على اللهو البرىء، حتى وإن دار كل ذلك الحب تحت تمثال القرصان الذى مات بعد أن قتل الآلاف. فلعله نوع من التكفير اللاشعورى عن ذنب قديم، اختيار هذا المكان بالذات لتجميع كل هذه الأفواج من الحمام المقدس.

والسائح من دول - أو السائحة - ينثر بعض الحبوب على كتفه فإذا بحمامة أو أكثر تطير من الأرض لتحط هناك وتأكل، ولربما بسط ذراعيه حوله وطلب إلى أصدقائه أن يغطوها بالحبوب مثل كتفيه، فسرعان ما يجتمع فوقه من الحمام ما يهىء لك أنك لا تنظر

إلى رجل وإنما إلى برج حـمـام ومن حـوله تطرقع الكاميـرات فى أيدى أصدقائه، حتى اذا ما عادوا إلى بلادهم أخرجوا تلك الصور وهم يتضاحكون ويصفقون ويقولون: أما كانوا يومين ياولاد!

فـهذا الميدان فى عمومه صورة حلوة للتآخى بين جنس الانسـان وجنس الحمام، وللتآخى بين الانسان والانسان أيضا، بين عشرات الجنسيـات التى تجـتـمع هناك بالآلاف كل يوم وليس ثمـة خناقـة واحـدة تقع بين انسـان وآخـر الكل يلهـون ذلك اللهـو البـرىء فى اهمال مفرح لتمثال القرصان الذى مات، حيث يقف على قمة عموده فى هيئة من الغطرسة التى لا تثير شيئا سوى السخرية.

محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

لكننى بالطبع لم أحضر إلى الطرف الأغر لمشاهدة الحمام، وإنما لأزور المعرض القومى القائم هناك، والذى يضم آلافا من الصور التى خلقتها ريشة عباقرة الفن فى كافة بقاع الأرض.

هى متعة لا يمكنك أن تتصورها بغير الممارسة، متعة وقوفك مذهولا أمام تلك الأعمال الفذة التى سحرتك وهى مجرد صور رأيتها فى كتب الفن. ولكنها متعة كان يجب علىّ للأسف أن أكبحها بحزم، فليس معقولا أن أقضى أسابيعى القليلة هنا فى المعرض القومى وحده، فأنت تحتاج إلى شهر وأكثر لكى تستطيع أن تزعم انك قد رأيت فى ذلك المعرض كل شيء، وتحتاج إلى عمر كامل لتقول انك قد استوعبت تفصيلات كل صورة على حدة.

ولذلك أعدت فى المعرض مقاعد مريحة أمام مختلف الصور، ورب أحد هواة الفن تمر به جالسا على أحد تلك المقاعد يحملق إلى صورة ما، وتتجول بالمعرض كله ثم تعود فتجده جالسا هناك كما كان!

لست بالطبع محتاجا إلى أن أفعل ذلك وأنا لست رساما محترفا ولا حتى هاويا، وما جلست على أى من تلك المقاعد إلا لأريح جسمى، ومخرجا علبة السجائر من جيبى قابلتنى زغرة من الحارس الذى ذكرنى بأن التدخين ممنوع، وهذا وإن كان مبررا بسبب الخوف على تلك الكنوز من الحريق، إلا أنه فى الوقت نفسه

مبرر كاف لأن أنهض وأغادر المعرض! فلست من ذلك الصنف الذى يقدر على الوقوف أمام عاريات فيلا سكويز وروبنز بغير شىء من موجات الدخان تتلاعب حول الأعطاف الفاتنة.

وعلى الرصيف خارج المعرض مررت برجل راكع على الأرض بطريقة تتنافى بعض الشىء مع فكرتى عن التقاليد السكسونية، وعلى براويز من أحجار الرصيف يرسم بالطباشير الملون صورا ساذجة، وكلمة بخط يده على أحد البراويز تقول انه ليس شحاذا وإن كان لا يمانع فى تقبل بعض الاكراميات تقديرا لفنه!

وبنسات كثيرة ترن حوله على الرصيف، فلعله يعود إلى بيته بثرورة أكبر مما كان عند فان جوخ فى الليلة التى قطع فيها أذنه!


محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى
ولد أم بنت
محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

لست أدرى إن كانا انجليزيين أو من السياح، هذان الشابان اللذان جلسا أمامى فى المترو، متدثرين بما يشبه عفريتة العمال الزرقاء بدون أن يكونا من العمال، أحدهما ذو شعر طويل يتهدل على كتفيه، لولا آثار الحلاقة فى ذقنه لظننت أنه أخته. والآخر على العكس منه قصير الشعر إلى درجة غريبة فى منافاتها لروح العصر، الأمر الذى يقطع بأنه ينحدر من أسرة من غلاة المحافظين إن لم تكن من المتطهرين.

لأن الشباب الانجليز كما رأيتهم لا يمكن أن يكونوا قد زاروا الحلاق منذ أخذوا الابتدائية، ومنهم من يستبعد أن يكون قد سمع بالحلاق أصلا ، أقصر شعر على رأس لا يمكن أن يكون قد حلق منذ عهد حكومة المحافظين أو على الأقل ـ فى الحالات النادرة ـ منذ دورة برلمانية كاملة.

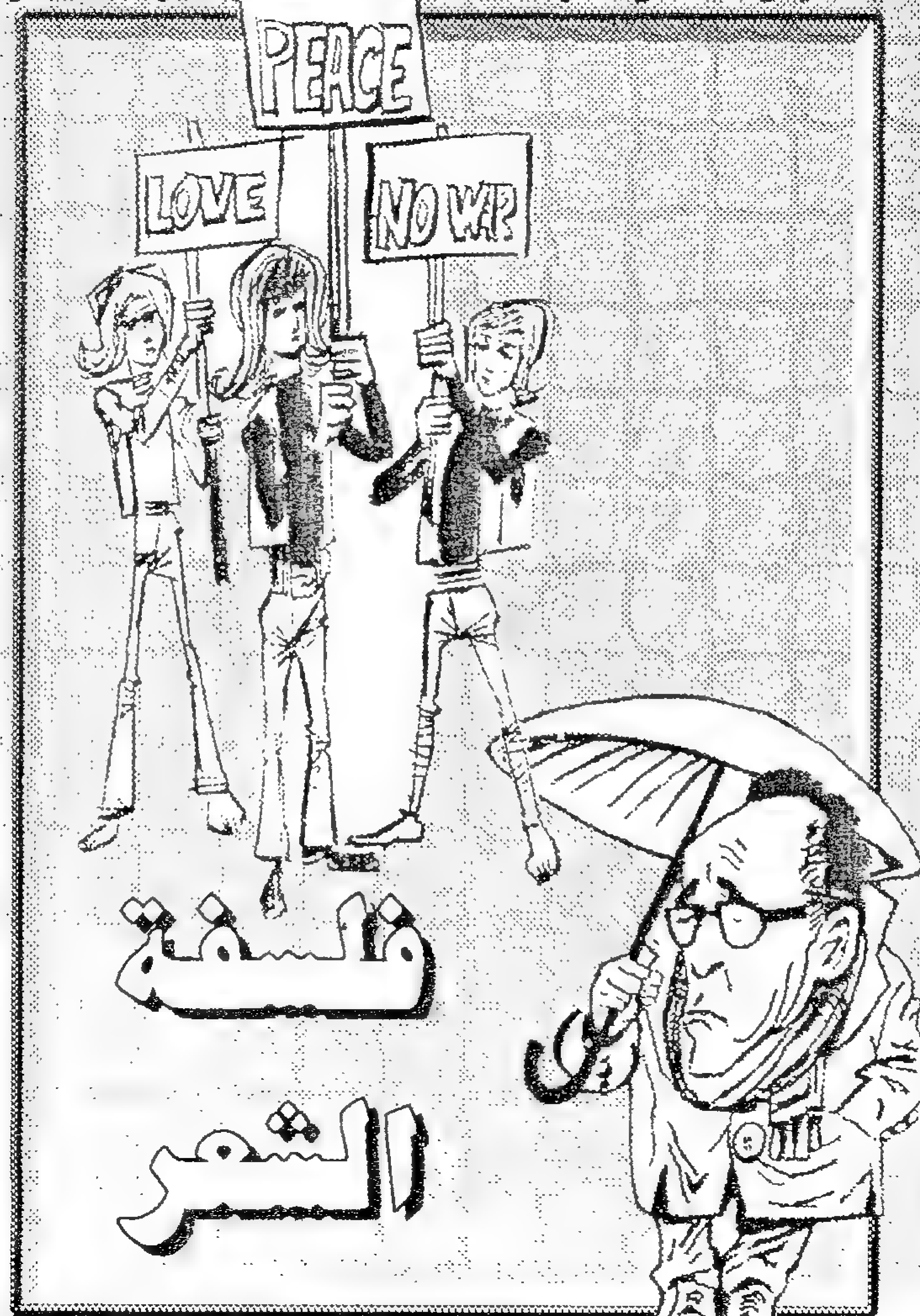
خناقة كبيرة لابد أنها قد وقعت ذات يوم بين ذلك الكهل الانجليزى الرسمى وبين أبنائه حين رفضوا الذهاب إلى الحلاق، أو حين تظاهروا بأنهم قد ذهبوا إليه ثم عادوا وشعرهم أطول من قبل، وبجانب الخناقة جدل هادىء ـ أو حاول الأب أن يجعله هادئا ـ حول الرجولة وطول الشعر، وهل تتمركز رجولة الشاب

فى شعره أم تشيع فى مختلف أنحاء جسمه، كل ذلك وشعر الأولاد لا يبرح يطول ويطول، يوما بعد يوم يتهدل على أكتافهم ويلخبط الكهل المسكين بينهم وبين أختهم بربارة، فأدرك الرجل أنه أضعف من أن يخوض معركة ضد روح العصر كله وانهمك فى جريدته متظاهرا بأنه لا يلحظ شيئا غريبا، وزيادة فى التمويه على نفسه لا يرفض بين الحين والحين أن يدفع لهم بضعة شلنات تفى بأجر الحلاق الوهمى! وحسبه على سبيل العزاء أن خوفه على مستقبل الأولاد كان فى غير محله، وأن شعورهم المتهدلة على أوراق الأسئلة لم تمنعهم كما كان يتوقع من النجاح فى الامتحان عاما بعد عام.

وفجأة نظر كل من الشابين إلى الآخر فى حنان واذا بالشاب طويل الشعر يمد ذراعه لكى يحيط خصر صديقه، واذا به يطبق عليه بالشفتين وهات يابوس! صدمة شديدة أصابتنى بطبيعة الحال، اذ لم أكن أتخيل أن الأمور يمكن أن تصل إلى هذا الحد حتى بعد ما قرأت عن رفع التحريم عن الشذوذ الجنسى بين «الراشدين» من الانجليز! وبانتهاء القبلة (٣٣ ثانية) نطق ذو الشعر الطويل للمرة الأولى مخاطبا صديقه بقوله ياماري، فهل يمكن أن تكون الحال قد وصلت بهذا الولد إلى الدرجة التى تجعله يتخذ لنفسه اسم بنت؟

لكنه نطق فإذا له صوت ناعم رقيق، وبجولة متأنية فى

تضاريس جسمه وراء العفريتة الزرقاء - جولة بصرية طبعا - تأكد لى فعلا أنه بنت لا ولد، أى أنه لا طول الشعر ولا نوع الملابس أصبح يصلح هنا مقياسا للأنوثة والذكورة، ولو أن الأمور أطردت على هذا المنوال فلا أستبعد أن يأتى يوم تكون الطريقة الوحيدة فيه لمعرفة جنس الكائن من دول هى أن تنتظر حتى يدخل الحمام ثم تنظر إليه من ثقب الباب!


محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى
PEACE
LOVE
NO WAR
فلسفة
الشعر
محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

حبيسا فى الفندق بسبب تلك الأمطار الوضيعة التى تنهمر منذ ساعات رحت أفكر فى تلك الشعور المرسلة التى أصبحت موضة شبه رسمية لشبان العالم الحديث.

ومن السهل أن تلخص المشكلة بأن تصف أولئك الشبان طوال الشعر بالميوعة أو بالرقاعة، الأمر الذى لو صح لوجب تعليق لافتة فى مطار لندن تقول للقادمين مرحبا بكم فى عاصمة الرقاعة، ولوزعت أكثر من نشرة سياحية تقول يارقعاء العالم اجتمعوا فى لندن! ولكن الأمور لا تحل بهذه السهولة، واذا كنا هنا نصف الشباب طويل الشعر بالرقاعة فذلك لأنه لا يعبر عن شىء سوى رغبته فى التقليد الأعمى، أما اذا رأينا جيلا كاملا من الشباب الغربى يرسل شعره فجدير بنا أن نتردد قبل أن نستخدم تلك الكلمات الكبيرة العائمة عن الرقاعة والميوعة والتخنث إلى آخر ما فى قاموسنا من الشتائم الخلقية، فليسوا رقعاء ولا مخنثين أولئك الآلاف من الشبان طوال الشعر الذين عرضوا أنفسهم لهراوات البوليس وغازه المسيل للدموع وهم يهاجمون السفارة الأمريكية وهيلتون لندن، ولا أقر أنهم الفرنسيون الذين نصبوا المتاريس فى شوارع باريس واحتلوا السوربون فى سبيل قضية

يؤمنون بها.

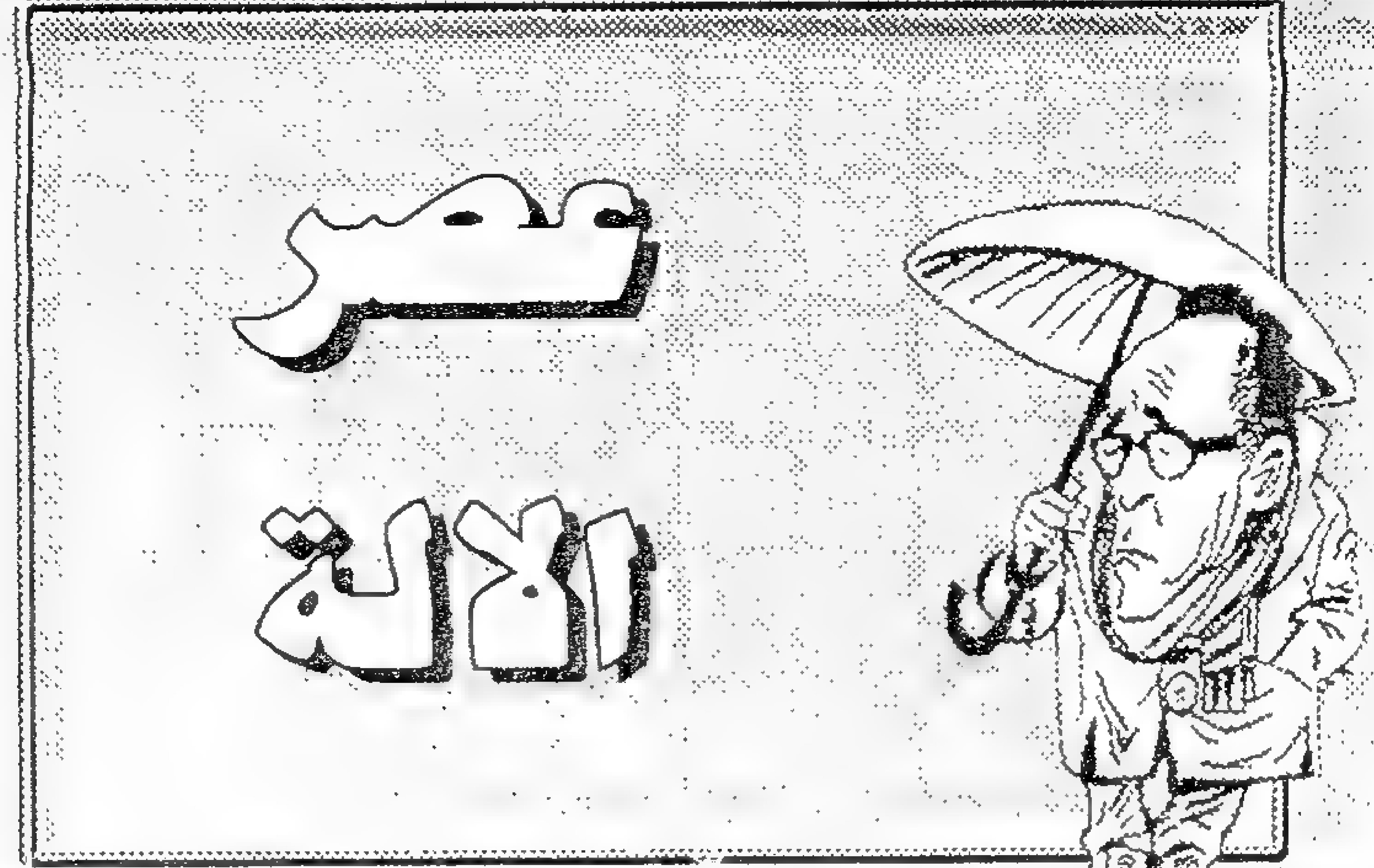
إنما هم يريدون أن يقولوا شيئا بتلك الشعور الطويلة وتلك الملابس التى توقع اللبس بين الذكر والأنثى. هم يبحثون كما يخيل إلى عن مفهوم جديد للرجولة، كارهين أن تنحصر رجولة الرجل فى شعر يحلقه أو صديرى يزرره على صدره تحت جاكته كئيبة مخططة. ولعلهم كرهوا مفهوم الرجولة التقليدى كله وأرادو أن يثبتوا أن شابا طويل الشعر يحتج على حرب فيتنام أحسن وأرجل من رجل قصير الشعر يشعلها.

لو أوتوا البلاغة الكافية لاحتجوا بالكلمات، لكنهم فى زحام المشاعر المتلاطمة المنحشرة فى عنق الزجاجة قنعوا مؤقتا بالاحتجاج بالشعر الطويل والملبس الغريب. هم ينكرون مبادئنا كلها نحن الكهول، وما شعرنا القصير وثيابنا المهندمة إلا رمز لتلك المبادىء. فلو أننا كنا نطيل شعرنا ـ نحن أبناء الجيل القديم ـ لحلق أولئك الشبان رؤوسهم زلبطة! ولو كنا نلبس العفاريت والميكرو جيبات للبسوا السموكن شبانا والملس شابات!

هم يحتقروننا ولهم والله عذرهم، بشعورنا الحليقة ورجولتنا المزورة نرسلهم إلى كافة بقاع الأرض ليقتلوا الناس وليموتوا، وشعارات كبيرة نرددها على أسماعهم عن حقوق الانسان بدون تعريف دقيق لذلك الانسان، هل هو الرجل الكادح فى سبيل ساندويتش من الكلاب الساخنة أو الرجل البنكير الجالس

يحصى نقودا تفوح منها رائحة الدماء والبارود، ومعابد ندعوهم إليـها ليسمعوا صـوت السماء، وما فى سمائنا إلا طائفة من الشياطين الذرية تعوى وتخنق ترانيم الملائكة.

فأرضنا فى الحقيقة فى حال من الفوضى التى تثير فى النفس كسلا شديدا عن التردد على صالون الحلاقة، ووالله لو عرفت ـ أنا الكهل ـ أن شعرى سوف يتهدل لو أرسلته لفعلتها من زمان لكننى أعرف أنه سوف يرتفع إلى أعلى ويتشابك ويتعقد حتى يصبح رأسى مثل حقل من التين الشوكى، وبمثل هذا الشعر لن يكون لى نفع كبير فى غير يوم يخطر لزوجتى فيه أن تزحف السقف وتتلفت حولها باحثة عن رأس العبد فلا تجد سوى رأس العبد لله.!



متعة ميكانيكية غامرة وأنا أدس نصف الكراون فى ثقب الماكينة التى تبيع السجائر، وبينما أستخرج العلبة من المكان المخصص أسمع شخللة لطيفة لعدد من البنسات تتساقط فى مكان آخر، وهى الفكة التى حسبتها الماكينة الخبيثة كحق تبقى لى من نصف الكراون!

والتماسا لتلك المتعة الميكانيكية شربت أكثر من زجاجة كازوزة مع اننى لا أحب الكازوزة وأكلت أكثر من باكو شيكولاتة مع أنها توجع بطنى، وذات مرة وضعت قطعة العملة المطلوبة فى الثقب فإذا بها تنزل فى الوعاء المخصص دون أن تقدم لى فى مقابلها أى علبة، فالتقطت العملة وأودعتها فى الثقب من جديد، وإذا بها تنزل لى فى الوعاء المذكور مرة أخرى، كلما أودعتها نزلت لى وأنا لا أفهم لماذا يحدث ذلك، إلى أن ظهرت لى على لوحة خاصة كلمات كهربائية تقول لى: لا

بيع! أى أنها الماكينة ـ قد صبرت على كل ذلك الوقت منتظرة أن أيأس وانصـرف فلمـا وجـدتنى لا أيأس لـم تجـد مـفـرا من اخطارى بتلك الكلمات أنها تعتذر عن البيع لسبب أو آخر!

فابتعدت عنها متلفتا حولى بالخجل المناسب من عباطتى، وحمدت الله على أننى قـد رأيت تلك الكلمـات وامـتنعت عن مـواصلة ايداع العملة ملحـا فى طلب العلبة. فـلا يستبعد لو اننى واصلت ازعاج الماكينة بهذا الشكل أن تظهر لى على اللوحة كلمة تهزىء تزعجنى بالرغم من أنها بالكهرباء!

فلست أدرى لماذا لا نسـتـورد عندنا تلك الماكـينات اللطيـفـة أو نصنعها، فلاشك أن ماكينة من هذا النوع سوف تدخل البهجة إلى أكـثـر من قلب مـصـرى. وبالنسـبـة للكازوزة أعـتـقـد أن تلك المتـعـة الأوتوماتيكية فى الحصول على الزجاجة سوف تجعلك أقل انزعاجا عند وصولك فى تجرعك للسائل إلى الصرصار الصغير السابح فيه. نعم نحن فى حاجة إلى ذلك النوع من الماكينات فى هذاالوقت الذى أكثرنا فيه من الحديث عن فنون التكنولوجى.


محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى
مقاطيع
بيكاديللى
محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

يخيل إليك أنهم قد خرجوا من صورة لسلفادور دالى، أولئك الشبان والشابات الذين يرابطون طول الوقت فى ميدان بيكاديللى. حول العمود الذى يتوسط الميدان حاملا فوقه إيروس إله الحب، لامعا تحت الرذاذ المتساقط ومصوبا إلى الأبد سهمه إلى قلوب الناس.

ليس أغرب من ألوان ثيابهم إلا تفصيلها، متهدلو الشعور طبعا مع اضراب تام عن تمشيطها على سلالم التمثال يترقصون أحيانا ويتقصعون، وأحيانا يتمددون على البلاط فى حالة من النيرفانا الكاملة، وبنت تمد بوزها نحو صاحبها لتخطف منه قبلة لا يبدو أن أحدا منهما يريدها، توطئة لأن تسرح فى الوجود حولها بنظرة طويلة فارغة. وهم فى كل ذلك لاينزعجون من آلاف العيون التى تتركز عليهم من المارة طول الوقت، ولا من الكاميرات السياحية التى لا تبرح تطرقع حولهم وترسل صورهم إلى كافة أنحاء الأرض. ولرب شاب منهم يرى الكاميرا مصوبة إليه فيضع يدا على خصره وأخرى على رأسه ويتقصع مقلدا ممثلات السينما فى أوضاع الاغراء. فهم سعداء فيما يبدو بهذا الاهتمام العالمى، ولو أن الناس انصرفوا عنهم واهملوا أمرهم لتنهدوا فى يأس وعادوا إلى بيوتهم.

أكثر من مرة خطر لى أن أقترب منهم واستفسر عن فلسفتهم فى الحياة إن كانت لهم فلسفة، ولكن منظرهم العام أوحى لى بأن المسألة غير مأمونة العواقب، وأن محاورة طويلة بيننا قد تختتم فى قس

الشرطة، وأنت تعرف نفورى من تلك المؤسسات حتى لو كانت فى بيكاديللى، ولذلك اكتفيت بالسؤال عن أمرهم، وخرجت بعدد من الاجابات المعنة فى تناقضاتها.

فهناك رأى يقول بأنهم لا يخرجون عن كونهم شرذمة من العاطلين والصيع والمقاطيع ومدمنى المخدرات، وأنهم ما كانوا لينحدروا إلى هذه الصورة المزرية لولا حكومة متساهلة تشجع الناس على الانحلال باسم الحرية الفردية.

وهناك رأى آخر يرد إليهم شيئا من الكرامة، قائلا إنهم يمثلون نوعا من الاحياء لفلسفة الكلبيين الاغريق الذين ارتأوا أن ذروة الخير والسعادة هى أن تعيش كما تعيش كلاب الطريق. وهم قد بدأوا تطبيق هذه الفلسفة بتلك الملابس الغريبة التى تؤكد ثورتهم على كافة الرسميات التى تثقل كاهل الرجل العادى. أما عن العمل فلماذا يعملون فى سبيل أن يربح سلفردج، ولماذا يكسبون اذا كان معظم كسبهم سيضيع فى الضرائب التى تذهب إلى جيوب تجار السلاح؟

فهم وفقا لهذه النظرة يعبرون عن احساس الضياع الذى يساور كافة أبناء القرن العشرين، ويرمزون إلى فشل نظام كامل فى الاجتماع والاقتصاد والأخلاقيات، عماراته الشاهقة لا تبنى إلا لكى يقفز من فوقها الفقراء والمحرومون، والحب فيه لم يعد أكثر من تمثال من المعدن البارد الأصم!



مارا فى الطريق بقبلة أطول من اللازم وفقا لمقاييس عصر السرعة، بين فتاة وشاب لا يمكن أن يكون حلق شعره منذ سنتين، رأيت على الحائط اعلانا عن عرض دولى للستربتيز فى المكان الفلانى من حى سوهو، الأمر الذى دفعنى - على سبيل رد الفعل المنعكس البسيط - إلى أن أمد يدى إلى جيبى لأخرج الخريطة. صحيح أن موضات المينى والميكرو لم تترك داعيا لهذا النوع من الفضول التشريحى - وخاصة اذا أخذنا فى اعتبارنا تدخل النسمات التحتية العابثة بين حين وآخر - ولكنك تعرف أن شيئا لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب.

فبينما أنا أتفحص الخريطة معتمدا على نهر التايمز كفاصل بين جنوب لندن وشمالها، فوجئت بالمساحة الزرقاء التى تمثل النهر وقد تحولت إلى مجرى مياه حقيقى لا جغرافى، بسبب الأمطار اللعينة

التى بدأت تتساقط فجأة على الخريطة وعليّ! فأدركت اننى فى سعيى إلى العنوان المطلوب لن أصل إليه إلا وأنا فى حال من البلل تجعلنى أحوج من عارضات الستربتيز إلى خلع ثيابى.

فتنهدت ورددت الخريطة إلى جيبى، ورافعا المظلة المنحطة فوق رأسى سرت أغالب الغيظ بالتفكير فى نظريتى السيكوطقسية الخاصة بمنشأ الامبراطورية البريطانية، قائلا لنفسى أنه ما من رجل انجليزى كان يفكر فى تكوين تلك الامبراطورية لو أتاح له جو بلاده التعس أن يخلع ثيابه لغرض ما غير تجفيفها!

وعلى أى حال ما أظننى كنت أستفيد كثيرا من فرجتى على الآنسة (حلوة الآنسة دى؟) المتجردة، فالنساء كلهن سواء حين يتجردن. ولعلهن ما اخترعن حيلة الثياب إلا لايقاع الذكر فى ذلك الوهم الخاطىء، أن هناك فرقا كبيرا بين فاطمة ومارى، أو بين عيوشة ومونيك!


محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى
الشيش المفقود
محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

الأمطار السافلة تضرب زجاج نافذتى بغير رحمة، ونافذتى كما أسلفنا غير ذات شيش. مجرد زجاج يرتفع وينخفض وستارة من الكريتون تحجب منظرى عن الآخرين اذا لم أكن ذا ميول استعراضية. ولذلك خطرت لى فى اليوم الأول من وصولى أن أنتقل إلى فندق آخر، لم يمنعنى من ذلك إلا ما تبينته فى اليوم التالى من أن كل النوافذ فى كل البيوت فى لندن غير ذات شيش فيبدو أن الشيش بالنسبة لنوافذ العمارة مثل البواب بالنسبة للعمارة نفسها - نوع من الترف الذى لاتقدر عليه غير الدول النامية! وربما كان ذلك بسبب أن الشيش شىء صنعه أهل المناطق الحارة لكى يتقوا به شر شمسهم المحرقة، الأمر الذى يكذبه ما رأيته فى كثير من الأفلام من نوافذ فى المكسيك والبرازيل غير ذات شيش. فيبدو أن الشيش شىء لا علاقة له بالجو بقدر ماله من علاقة بالحجاب، وانه اختراع خاص بالبيوت التى يكره صاحبها أن تقع نظرة من الجيران على الاناث من أهل بيته.

فالستارة مهما كانت ثقيلة قد تنجح حين تنفرج - لهذا السبب أو اك - فى فضح خصلة من شعر الزوجة أو البنت، أو قطاعا من كتفها أيمن اذا تصادف أن كانت فى قميص النوم، حتى اذا كانت ستارة صرية من سيور البلاستيك، أما الشيش الخشبى فهو لا ينفتح إلا

بفعل فاعل أو فاعلة، وليس ثمة رجل شرقى يعتقد أن زوجته أو ابنته يمكن أن تفعل أمرا كهذا - وذلك طبعا ما عدا الرجل الذى قام باختراع الشيش!

وشاب تهجم على حجرتى بالفندق ذات صباح، وبدون احم ولا دستور توجه إلى النافذة فرفع زجاجها وخرج منها. وظننت بالطبع انه انسان تعس طرد من عمله أو خانته زوجته مع أعز أصدقائه فقرر أن ينتحر مختارا نافذتى بالذات لكى يثير الريب حولى لغرض فى نفسه. لكن الله قدر ولطف وتبين أنه لا يريد أن ينتحر بل أن يشتغل اذ اكتفى بالتشعلق فى النافذة من الخارج مع اخراج خرقة ينظف بها الزجاج ويلمعه، كارها فيما يبدو أن أنظر من خلال الزجاج القاتم فتفوتنى احدى التفاصيل المهمة فى الشارع اللندنى.

فالنافذة الزجاجية وفقا لهذا الوصف قد أفادت بعض الناس بخلق أعمال خاصة لهم، وربما كانت قد أفادتنى أنا صاحب النافذة وخاصة فى ذلك الصباح الذى صحوت فيه وأنا فى حجرة تحت الأرض.



لأسباب أعتقد أنها تهمل - وهذا مبرر كاف لأن أخفيها عنك! - وجدت نفسى ذات ليلة - وللمرة الأولى فى حياتى - نزيل تلك الحجرة فى البدروم والذى يشرف من تحت إلى فوق على الشارع اللندنى، ومن الثامنة إلى التاسعة صباحا - موعد ذهاب الناس إلى العمل - جلست أستمتع بالبانوراما المتحركة أمامى، تلك البانوراما التى يمكنك أن تتصور بهجتها فى عصر المينى والميكرو!

فبينما أنا أحملق إلى تلك التسالى من خلال القضبان الحديدية للنافذة وجدت شيئا من الصعوبة فى منع نفسى من أن أضحك لوحدى كالعبيط، متذكرا ما يشكو منه سكان البدرومات الانجليزية من النظرات المتطفلة لما يسمونه «توم البصاص»، ذلك الشاب الذى يتعمد التلصص بالنظر إلى مجريات الأمور فى تلك الحجرات الواطئة،

خصوصا عندما يحل من الظلام ما يخفيه عن العيون وما يهيىء لسكان الحجرة أنه يخفيهم. اذ كنت أنا - فى وقفتى تلك أنظر إلى مواكب المينى جوب العابرة - أول توم يتبصص على الناس من الداخل إلى الخارج!

لكن ذلك الموكب البشرى ما لبث أن هدأ بذهاب الناس إلى أعمالهم، ومن خلال القضبان الحديدية قابلتنى عينان خضراوان براقتان، فى وجه مستدير لقطة بريطانية تقف على رصيف الشارع، كثيفة الشعر نافشة الذيل منغبشة اللون ملظلطة بشدة، قلت لها بسبس فأجابتنى من حيث وقفت على الرصيف قائلة نو، الأمر الذى طمأننى إلى أن لغة القطط فى لندن هى نفس لغتها فى القاهرة، وأنه بالرغم من اللكنة الخفيفة التى تشوب نونوة هذه القطة فلن يكون عسيرا علىَّ أن أتفاهم معها، ولربما كان تفاهمى معها أيسر من تفاهمى مع أصحابها الذين لا أفهم - بالرغم من اجادتى التامة للغتهم المكتوبة - شيئا مما يقولون.

وقفزة رشيقة نقلت القطة من الرصيف إلى حافة النافذة، تمسحت بجنبها لحظة فى أحد القضبان، ثم وثبت إلى أرض الحجرة تتشمم الدنيا حولها، رافعة فى خلال تجوالها ذنبها النافش الذى قال لى إنها ليست قطة وإنما قط!

- ناو!

هكذا قال ضيفى وهو يرفع نحوى نظرة خضراء مناشدة، فتذكرت علبة الفراخ المحفوظة التى كنت قد اشتريتها لزوم الغداء بكذا شلن وسنت. ومن العلبة أخرجت قطعة نسيرة وضعتها له على الأرض فوق ورقة من الملحق الاقتصادى لجريدة التايمز، حيث إنه من المستبعد أن تكون هناك فائدة كبيرة لذلك الملحق بالنسبة لرجل يسكن تحت

مستوى التيمز. (لاحظ الفرق بين التايمز والتيمز لكيلا تتورط كعادتك فى ذلك الخلط المضحك بين الكلمتين).

فى وقار لا لزوم له فى ذلك الموقف تقدم القط من قطعة الفراخ، تشممها لحظة بأنفه السكسونى الحساس ثم رفع بصره نحوى قائلا: ناو، الأمر الذى فهمت منه أنه إما يشك فى الدوافع الكامنة وراء هذا الكرم غير المتوقع من ناحيتى، وإما - وهذا مستبعد طبعا - لا يحب الفراخ.

- ماذا تعنى بقولك ناو؟ لماذا لا تأكل؟

هكذا سألته بلغته الانجليزية فلم يزد على قوله ناو، وكان فى لهجته هذه المرة نبرة عتاب لم أفهم لها سببا: ثم أدنى أنفه من النسيرة وشمها من جديد، وبهيئة من يقبل على مغامرة خطيرة قضم منها بأسنانه فتفوتة صغيرة، ولاكها حينا فى فمه ثم ابتلعها بصعوبة، متوجسا فى أغلب الظن من أن أكون قد دسست له السم فى الطعام فى ذات نزوة وطنية رسبت فى نفسى من أيام الاحتلال.

- كل ما تخافش! كل! اطفح!

فقضم فتفوتة أخرى، وهذه لم يبتلعها بل بصقها، وهز رأسه بقوة لكى يطرد جزءا منها علق بشعرة من شاربه. ثم رفع يده إلى فمه وحكه لكى يزيل عنه كافة الآثار، وابتعد عن المكان كله وهو يجعر قائلا ناو! فهو اذن - قطعا وجزما - لا يحب الفراخ أو على الأقل لا يحب الفراخ المعلبة، واذا كان قد أكل تلك الفتفوتة فما ذلك إلا على سبيل جبران الخاطر ورغبة من ناحيته فى ألا يكسفنى.

وبناو أخرى توديعية قفز إلى حافة النافذة ومنها إلى الرصيف، وابتعد وهو لايزال يهز رأسه لكى يطرد عن شاربه - وعن ذاكرته

أيضا ـ كل ما تبقى من آثار الفراخ التى سوف أتغدى بها أنا، ولعله وهو يفعل ذلك ترحم على الأيام الحلوة القديمة حين كانت الفراخ فراخا، وتصعب فى حسرة على هذا التدهور المتواصل فى المستوى السياحى.

فراقبته يبتعد وأنا أتصعب بدورى آسفا على هذا الترفه ـ المرضى بغير شك ـ الذى وصل إليه القط البريطانى، وهو بالطبع مسئولية التاجر البريطانى الجشع، الذى فى تصيده للشلنات والبنسات بكافة الطرق عمد إلى تلك الحيلة الدنيئة التى رأيتها على أحد الرفوف فى أحد محلات البقالة، ممثلة فى علبة تحتوى على غذاء خاص للقطط مكون كما تقول العلبة من توليفة نادرة من شحم الخنزير ولحم الدجاج المفروم. فلماذا والحال كذلك لا يعزف القط الانجليزى الوغد عن الغدوة التى كنت أنا أعتبرها نوعا من الرفاهية حيث أقيم تحت الأرض؟

فلفقت النسيرة فى الملحق الاقتصادى وألقيت بالاثنين فى صندوق الزبالة، قائلا لنفسى إنه ليس من الغريب أن يصل القط الانجليزى إلى هذا الحال بعد قرنين من الزمان قضاهما الرجل الانجليزى فى عض عبادالله وخربشتهم فى أربعة أركان الأرض. وعلى أى حال فالحمد لله على اننى فى لندن لا فى نيويوك، فعند المقارنة بين درجات الثراء ما أظننى كنت أنجح فى استمالة أى قط هناك ما لم أعزمه على الغداء فى هيلتون!



وحمام لندن لا يقل فيما يبدو ألاطة وتبطرا عن قططها، وخذ مثلا تلك الحمامة التى سارت على الرصيف أمامى حيث جلست مرة أخرى على الدكة بالقرب من الكنيسة. سائرة بتلك الطمأنينة التى تميز حمام لندن تقدمت منى، وذكرت أن فى جيبى فزدقة تبقت هناك من أيام الكويت فأخرجتها وقشرتها وألقيت لها بها، تشممتها فى ارتياب ثم تركتها وابتعدت مرفوعة الرأس فى كبرياء. أى أنه حتى الفزدق الذى احتجت فى سبيل أكله إلى أن أسافر إلى الكويت قد صار هو الآخر - مثل نسيرة الفراخ - من الأشياء التى تزدريها حيوانات لندن المتعنطزة.

وبالنسبة لهذا الحمام المتفشى فى لندن أعجب لماذا يرفض الانجليز - وأهل الغرب عامة - أكل الحمام باعتباره لونا همجيا من الوحشية،

فما الفرق بين حمامة أذبحها وبين دجاجة مما يذبحون، أو ديك رومى بمناسبة عيد الميلاد، أو ثور عظيم لزوم تعبئته فى العلب؟ لا فرق بالطبع، ولو أن كل هذا الحمام عندنا فى شوارع القاهرة لامتلأ فريزر ثلاجتى إلى حد الانفجار، ولأريقت أنهار من السمن لزوم الحشو والتحمير.! لكن الحكاية إذا وصلت إلى طقوس الغذاء فيبدو أن الشىء الوحيد الذى يجب وضعه فى الفريزر هو المنطق! فأنا وأنت لا نأكل الضفادع التى يموت فيها الفرنسيون، وهاهم الانجليز يأكلون الخنزير ويرفضون أكل الحمام، ورب رجل هندى يسقط على أرض بيهار من فرط الجوع ليلفظ روحه شيئا فشيئا وغير بعيد منه بقرة ملظلظة تتبختر فى خيلاء ويكاد شحمها من فرط سمنتها يبظ من خلال جلدها المقدس!



فلعله يهمك أن تعلم أن غذائى الرئيس كان يقوم على المعلبات، دعك من المرات التى قلدت فيها صعاليك الانجليز بأكل السمك والتشبس. فأنت تعرف صعوبة الحصول على العملة الصعبة بالنسبة لرجل مغترب، وخاصة بالنسبة لرجل يعانى - وهو غير مغترب - كل ما تعرفه من الصعوبة فى الحصول على العملة السهلة!

والمعلبات فى لندن و فى كل بلاد الغرب شىء يوجد فى كافة محلات البقالة من الأرض إلى السقف، مئات من الرفوف التى تحمل آلافا من العلب التى تحوى كل ما يخطر على بالك من أنواع اللحوم والطيور والأسماك والخضر والفاكهة. فهى شىء لا غنى عنه لأولئك الناس الذيَن يعرفون قيمة الوقت، والذين ما كانوا لينجزوا كل ما أنجزوا لو أن ربة البيت تضيع سحابة اليوم فى خرط البصل وعصر

الطماطم وخلط التقلية وتسبيك الأكل على النار، وكل ذلك تمهيد لما يضيع من وقت الأفندى فى التهام الوجبة المسبكة توطئة لأن يرتمى على الفراش ساعتين لزوم الهضم!

إنه لمنظر ممتع حقا، منظر الإناث وهن يتجولن بين الرفوف دافعات أمامهن تلك العربات الصغيرة التى لابد أنك رأيتها فى السينما، يحملنها بكل ما لذ وطاب من تموين البيت. فلشد ما تمنيت أن أحذو حذوهن بدفع احدى تلك العربات، ولكن منظرى بغير شك سوف يكون شديد العباطة عند مقارنة ما فى عربتى - وفقا لامكانياتى - مع ما فى سائر العربات.



نعم هناك شىء غريب فى عيون أنثى الغرب، هكذا قلت لنفسى من جديد حيث جلست أتفحص ذلك الزوج الجديد من العيون الزرق - أو قل هو شىء مختلف عن العيون الشرقية - ولذلك بدا غريبا لذكر شرقى مثلى.

قلت قبل ذلك إنه نوع من الجرأة والاقتحام وكنت فيما أظن صادقا، ولكن المسألة ليست بهذه السهولة. فهذه الجرأة ليست إلا نتيجة لسبب آخر، وذلك السبب هو الذى يجب أن أتوصل إليه لكى أهتدى إلى سر ذلك الشىء الغريب أو المختلف فى العيون الحرة الزرقاء.

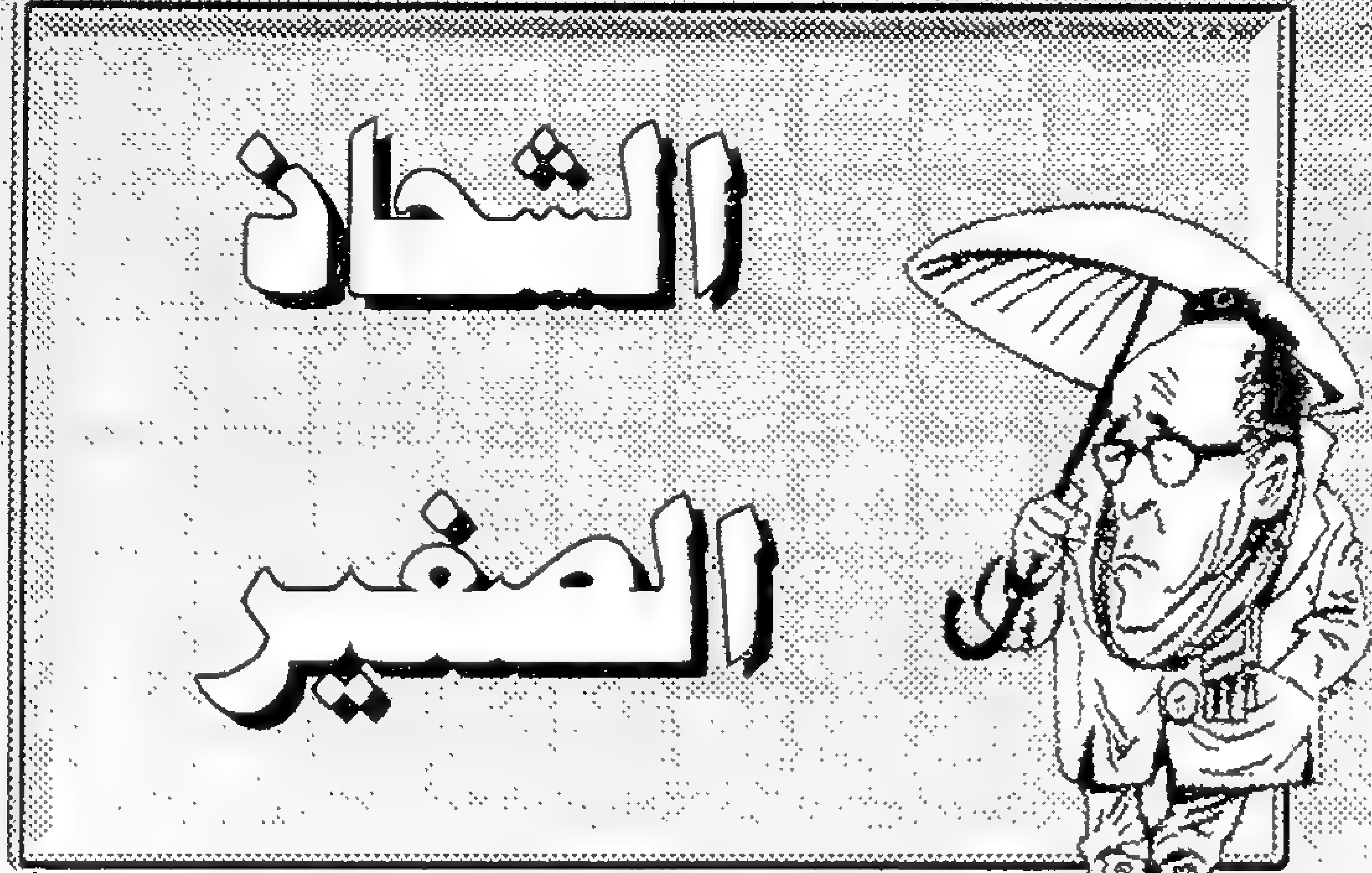
ومرة أخرى أغض البصر مخافة أن تظن البنت بى الظنون، فيقع - بصرى - على الفخذين الجريئين فى الميكرو جوب الصفيق. فبينما أنا أتأمل الموقف هناك بعين الدارس المتأنى، ناهلا من تلك النكهة الحراقة

للأنوثة البيضاء الصارخة، ومضت الفكرة فى دماغى مثل وميض الشهاب، ورددت البصر إلى العيون الجريئة الزرقاء لكى أرى فيهما السر الغريب وقد كتب هناك بحروف من النيون الساطع: أن الحكاية بمنتهى الاختصار أن هذه البنت المسكينة عارية الساقين ليس عندها أى ذرة من الشعور بأنوثتها!

تلك النظرات الجريئة المقتحمة ليست نظرات بنت وإنما نظرات ولد، أو قل نظرات كائن نسى من زمان إن كان بنتا أو لدًا، نهائيا نسيت أنثى الغرب أنها أنثى، بعد عديد من مراحل التطور التى أزالت من روحها كل شعور بأنها تختلف فى أى شىء مختلف عن الرجل. فلعلها ما لبست هذا الثوب ـ أو على الأصح خلعته! ـ إلا خوفا من أن أتردى بدورى ـ أنا الذكر البشرى ـ فى تلك الهاوية من نسيان حقيقة أنوثتها!

وتلك الجرأة البصرية ليست إلا أحد مقومات ما أميل إلى تسميته بالحرية الحركية العامة التى تميز أنثى الغرب عن أنثى الشرق. فلابد أنك لاحظت تلك الجلسة العاقلة الملمومة للأنثى الشرقية، مع وضع ثابت معلوم لكل عضو من أعضائها، كل حركة من حركتها بأناة ورزانة وحساب حتى لا تخرج عن المفهوم العام للحشمة الجديرة بالأنثى. فهى أنثى قبل أن تكون انسانا، ولربما خالط شعورها بأنوثتها شعور بالنقص لذلك السبب، واحساس بفكرة «العورة» يشيع فى كل كيانها. كأنما كان الله تعالى يريد أن يعاقبها حين رفض أن يخلقها رجلا، وحين أرسلها فى تلك الصورة الناقصة لكى تسير إلى الأبد فى دروب الحياة محمرة الوجه مطرقة الرأس وسط آلاف العيون الساخرة أحيانا والزانية دائما!

كل ذلك تخاصت منه الأنثى الغربية تماما، ومن كافة الطقوس الحركية التى تفرضها سائر المجتمعات على أنثى البشر. وهو بغير شك كسب كبير لها، ذلك الشعور الجديد بإنسانيتها من قبل أنوثتها، وتلك الشخصية العريضة المنطلقة مثل شخصية الرجل. وهو فى الوقت نفسه كسب للأطفال الذين تشرف على تربيتهم، والذين يتشربون يوما بعد يوم بتلك الشخصية العريضة المتفتحة. لكننى أتردد كثيرا قبل أن أقول إنه كسب للرجل الغربى، الذى لا أشك فى أنه يحتاج إلى قدر كبير من النبش المجهد فى طبقات انسانيتها الكثيفة قبل أن يصل إلى الأنثى الرابضة فى أعماقها!



ولد صغير تقدم نحوى ذات يوم فى الطريق الهادىء وقال بلهجة آمرة!

ـ ادينى ستة بنس!

فخيل إلى مدى لحظة ـ بسبب تلك اللهجة الآمرة ـ أنه أحد قطاع الطرق، وأن يده المدسوسة فى جيبه تقبض على زناد مسدس، ولكننى ما لبثت بالطبع أن استبعدت تلك الفكرة استنادا إلى أنه من غير الممكن أن يبدأ قطع الطرق فى تلك السن المبكرة حتى اذا كان القاطع انجليزيا، ولا هو شحاذ بدليل ملابسه النظيفة الغالية ـ أغلى من ملابسى أنا على الأقل، فهو لا يخرج عن كونه طفلا شقيا بدد مصروفه فى الهلس ويعرف أن أمه سوف ترفض أن تعطيه مصروفا آخر.

من المحتمل طبعا أن يكون قد فقس بغريزته الصبيانية الحادة جنسيتى العربية ومن ثم أراد أن ينتفع بما يمكن أن يكون قد قرأ هنا وهناك عما يتصف به العرب من الكرم والمروءة. واحتمال آخر هو الأقرب إلى الصحة، وهو أن العملة المعدنية كانت تشخلل فى جيب البنطلون بشكل لافت للنظر حقا، الأمر الذى أوحى إلى الولد بثرائى غير عالم أن ثروتى كلها فكة!

ـ عاوز ايه؟

هكذا سألته لكى أكتسب بعض الوقت قبل أن أبت فى الطلب.

ـ ستة بس!

هكذا أعاد الولد طلبه بنفس اللهجة الآمرة فقلت له:

ـ تعمل بيها ايه؟

فرمقنى فى استهجان شديد لهذا الغباء الشرقى الذى يجعلنى أسأل مثل هذا السؤال وقال ما معناه:

ـ سبحان الله.. أصرفها!

لكنى لم أكن لأنهزم بهذه السهولة.

ـ تصرفها فى إيه؟

ـ فى أى حاجة؟

وهذا شىء طبيعى جدا، فما المانع من الفنجرة مادامت من جيبى؟ وعلى أى حال فقد دسست يدى فى جيبى وفى نيتى أن ألبى طلبه ولكننى ما برحت أن أمسكت بشىء فى داخلى قال لى إننى لا يجوز أن أشجع هذا الولد اللطيف على أن يصبح شحاذا، وأنه من الأجدى له أن يعرف أن الفلوس لا تكسب بهذه السهولة.

صحيح أنه قد يكون سليلا لاحدى الأسرات الاستعمارية، وأن جده

الأكبر ربما كان جاويشا أو ضابطا بين القوات البريطانية التى هزمت أحمد عرابى، ولكننى لا يمكن أن أحمل الولد أخطاء جده وأن أحوله إلى شحاذ لهذه الاعتبارات التاريخية.

وفى الوقت نفسه ـ إذ أنا امتنعت عن الدفع للولد ـ ألست بذلك أكون مسئولا عن الاساءة ـ وعلى المستوى الدولى ـ لسمعة الكرم العربى؟ فهو ـ كما ترى ـ واحد من المواقف النادرة التى يحتاج المرء فيها إلى حنكة بالغة لكى يعرف أين تكمن الفضيلة.

ولكن وقت الولد فيما يبدو كان أضيق من أن يتسع لكل ذلك الجدل الأخلاقى فقال لى فى صبر نافد:

ـ ح تجيب ولا لأ؟!

فرحت حينا أعابث العملات المعدنية فى جيبى توطئة لأن أتوصل إلى ما خيل إلى فى تلك اللحظة أنه القرار الحكيم: أخرجت كبشة العملات من جيبى وانتقيت له بعضها قائلا:

ـ كفاية عليك تلاتة بنس!



وعينان خضراوان مثل معظم عيون الإناث فى لندن، فى وجه أبيض وسط شعر أصفر مثل معظم الوجوه والشعور هناك، ومع ذلك خيل إلى اننى أرى فيهما شيئا مختلفا عما أرى فى عيون سائر الإناث. فهذه الأنثى على غير المألوف رقيقة النظرات عذبتها، تنظر إلى الدنيا بدون أن تزغر لها، ولمسة خفيفة من التهيب لما حولها من الناس فى عربة المترو. فإذا التقيت هنا أو هناك فهى تلتفت ببطء وأناة، لحظة عابرة، يستقر بصرها على الشىء ثم يرتد عنه بسرعة، شاعرة لسبب ما أنه ليس من حقها إطالة النظر إلى الأشياء، إذا افترضنا أن لها حق النظر أصلا، اذا كانت انجليزية أو أوروبية عموما فلابد أنها قد واجهت فى طفولتها قدرا أكبر من المألوف من الكبت، الأمر الذى يوحى بأن أباها أو أمها ـ أو كليهما ـ من غلاة المحافظين أو حتى من

المتطهرين. وبدأ القطار يهدىء من سرعته ونهض من الناس من ينوى النزول فى المحطة التالية، وبينهم شاب أسمر شرقى السمات مد يدا ربت بها على كتف الفتاة لينبهها إلى ضرورة النهوض قائلا بالعربية:

ـ يا الله يا فاطمة!



شىء أصـفـر اللون تسلل من النافـذة فـجـأة وانفـرش على أرض الحجرة، احتجت إلى نحو من دقيقة كاملة لكى أعرف ماذا يكون ـ فالمرء فى لندن يحتاج إلى ذاكرة أقوى من المعتاد لكى يعرف ضوء الشمس حين يراه !

أخيرا زالت الغيوم ونظرت فوقى إلى سماء زرقاء صافية ، أنا الذى كدت أنسى نهائيا أننى عضو فى المجموعة الشمسية! فاندفعت إلى الطريق كـالمجنون، مـا منعنى من أن أرقص واتنطط إلا خـوفى على سمعتى كصحفى ومصرى، فـاكتفيت بأن رفعت كفىّ إلى وجهى أدعكه بهما لكى أغسله بهذا الفيض المفاجىء من الدفء الالهى، مثل رجل يمسح وجهه بالدعوات فى نهاية الصلاة.

وحانت منى لفتة إلى حديقة بيت أمر به فرأيت على رقعة الحشائش

الخضراء ما خيل إلى بالنظرة الأولى أنه أنثى عارية وما تبين لى بالنظرة الثانية (٥٠ ثانية) أنها أنثى عارية فعلا إلا من المايوه. هناك تستلقى كالقتيلة على العشب الأخضر، عاجية اللون عطشى منذ أسابيع لتلك القبلة الشمسية الدافئة.

نعم هى بردانة مسكينة، فرحت بالشمس فتجردت من ثيابها لتشرب منها كل خلية فى جسمها المثلج. شأنها شأن عشرات البنات والصبيان الذين ملطوا فى الحدائق الخاصة أو العامة، وعلى الحشائش تمددوا وركعوا فى صلاة صامتة للشمس التى طلعت، مئات من البقع البيضاء على الحشائش الخضراء، متمرغة فى الضوء متنعمة سعيدة، لو رآها أخناتون لظن أن ديانته قد عادت إلى الحياة.

ألا ما أتعس أولئك الأوروبيين الذين يفرحون كل هذه الفرحة بساعة شمس عابرة! وما أتعس تجار الأقمشة والملابس لو أن أولئك الأوروبيين هم الذين يعيشون على ضفاف النيل تحت شمسه المشرقة أبدا!

ومهما كان من أمر فأنا واثق من صحة تلك النظرية السيكوطقسية فى تفسير نشوء الامبراطورية. فلست أشك فى أن الانجليز ماكانوا ليفكروا فى هجر بلادهم لولا جوهم اللعين، ولكانوا أكسل من أن يصنعوا الأساطيل التى يسرقون بها الأراضى المشمسة.

محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفو

فى ركن الخطباء



محمد عفـ ـى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى

وفى الشمس التى أشرقت وجدتنى أقترب من ذلك الركن الشهير ى هايد بارك ويسمى بركن الخطباء، حيث يقف بعض المعتوهين على سناديق من الخشب لكى يعبروا عن أنفسهم فى مختلف القضايا الدينية والسياسية، فاشلين غالبا فى إثبات آرائهم وناجحين دائما فى ستثارة سخرية الناس منهم، فليس من الحكمة أن تقف لكى تدافع عن الكاثوليكية ضد البروتستانتية وسط مجموعة من الناس أوشكت أن تكف عن الاهتمام بأى من المذهبين، وليست هناك أية مناسبة لأن تضيع يوما كاملا فى الحديث عن بشاعة الحرب الذرية مستخدما فس الأسانيد التى قرأها مستمعوك فى جريدة الصباح، أما إذا خلعت فانلتك عن جسم مغطى بأنواع مختلفة من الوشم الأزرق الأخضر فلا أظنك ستظفر من المجتمعين حولك بأكثر من شعور

بالأسف على أنهم لم يذهبوا إلى حديقة الحيوان.

معظم أولئك «الخطباء» ليسوا أكثر من نفوس حائرة تعسة ضلت طريقها إلى العيادة النفسية، ووجدت فى هايد بارك مكانا تتنفس فيه تحت حماية القانون عما يعتمل فى صدرها المكروب. فلاشك أن «أعقل» أولئك الخطباء هى تلك السيدة البدينة التى تجلس وفى يدها عصا تقرع بها صفيحة قديمة فارغة، وتنشد على الايقاع وبصوت مضحك أغانى قديمة يرددها بعض المتفرجين على سبيل المجاملة. فهو وفقا لذلك - ركن الخطباء بهايد بارك - نوع من العيادة النفسية التى يقوم فيها المجتمع كله بدور الطبيب لتلك النفوس الحائرة، ومن الإنصاف أن نقول إن ذلك المجتمع قد نجح حقا فى تقمص دور الطبيب، الذى يستمع فى صبر لهلوسة المريض ولا يعمد إلى التريقة عليه فى نزوات السخرية المتباعدة بأكثر من سبقه إلى إكمال جملة له يكون قد سمعها منها فى أيام الآحاد السابقة!



أنغام لا تخلو من الطرب تنبعث من ثنائى الماندولين والأوكورديون، على ايقاع من رنين البنسات البرونزية التى لا تبرح تتساقط من أيدى المارة فى تلك الزكيبة الصغيرة العتيقة، المتدلية من رقبة الماندولين الذى يحتضنه الانجليزى العجوز ذو الساق الواحدة!

على الرصيف المزدحم من شارع أوكسفورد، أمام محل سلفردج الذى هو واحد من أكبر المحلات التجارية فى العالم كله، والذى بيع فى العهد الأخير فى مقابل ذلك المبلغ الصغير الملموم: ٥٧ مليونا من الجنيهات!

كان فى إمكان ذلك الشحاذ الأعرج أن يقبع فى منزله ويعتمد على الاعانة التى تصرفها الحكومة للعاجزين أمثاله، لكنه فيما يبدو يفضل أن يكسب عيشه فى الهواء الطلق وبلمسة من الفن. إنما أعجب من أن

البوليس لا يتعرض له أو لزميله، ومن أن الحكومة لا ترى فيه شيئا يتعارض مع كرامة لندن السياحية، وكأنها تقول للسياح: تلك هى لندن عاجبكم ولا لأ؟!

وهذان الشحاذان الموسيقيان بالذات محط أنظار كافة السياح فى شارع أوكسفورد، وهذا فى أغلب الظن بسبب ذلك التناقض المثير بين إنسان عصرى يشحذ بالنغم أمام محل تجارى ثمنه ٥٧ مليونا. فربما كان البوليس يتدخل فى أمرهما عندما يؤول الحكم إلى المحافظين الذين لا يحبون إبراز تلك الصور الموحية بالفوارق الاجتماعية، وربما كان هذا الشحاذ الأعرج وزميله عضوين فى الحزب الشيوعى الانجليزى، وما يمارسان تلك الوظيفة أمام سلفردج إلا رغبة فى تجسيم ما يزخر به المجتمع الرأسمالى من المتناقضات!

ولعل زميلا لهما فى نفس الحزب، ذلك الرجل الآخر الذى يذرع نفس الرصيف من شارع أكسفورد، على كل من صدره وظهره اعلان خشبى كبير عن قارئة للكف وكاشفة للغيب اسمها مدام ساندرا. طول النهار يغدو ويروح وسط الآلاف من أهل البلد والسياح، عاملا كادحا أحمر العينين بشدة، تاركا فى النفس - نفسى أنا على الأقل - إحساسا غريبا بالمفارقة، إذ أتساءل لماذا لم ينتهز الرجل لحظة من لحظات الفراغ لكى يبسط للمدام كفه ويأخذ منها فكرة عن غيبه الخاص؟!



وعلى رصيف نفس الشارع غير بعيد من محلات سلفردج «٥٧ مليون جنيه» رأيت لمة كبيرة فانحسرت فيها لأعرف سرّها بين ميكرو جوبين عاديين، وهناك رأيت رجلا انجليزيا قد وضع على الأرض صندوقا كبيرا مفتوحا، ومنه يخرج زجاجات عطر صغيرة ينادى عليها بما معناه:

- سلفردج ببيعها باتنين جنيه! لكن أنا موش ح أقول اتنين.. ولا حتى جنيه.. ولا نص جنيه.. ربع جنيه بس.. ربع جنيه القزازة يابلاش.. يا الله ياجدعان مال الخواجة!

هذا الرجل دليل ناطق على أن الفقر مازال موجودا فى عاصمة الامبراطورية السابقة، فلو أن هذا الرجل لم يكن فقيرا فلماذا لم يفتح له محلا مثل سلفردج بدلا من أن يكتفى بمنافسته بهذه الطريقة

البدائية؟

ولهذا السبب ـ لأنه فقير ـ تجمع حوله كل أولئك الناس وغابت فى الجيوب والحقائب عشرات الأيدى تبحث عن أرباع الجنيه، من الذى لا يخف إلى نجدة هذا الرجل التعس الذى لا يوجد أدنى شك فى أن أولاده على شفا الموت من سوء التغذية إن لم يكونوا قد ماتوا فعلا؟

فلو كان معى ما يسمح لى بهذا الترف الخيرى لاشتريت منه زجاجة أو اثنتين ولا الحوجة لسفلردج، ولكن أنى لى فى لندن بالعملة التى تسمح بشراء الكولونيا التى حتى فى القاهرة لا أشتريها إلا اذا تعدت حرارة الولد المريض ٤١ وشرطتين؟!

فاكتفيت بأن أتنهد وأنصرف، وعند محطة الاتوبيس وقفت أتصفح الجريدة التى أيدت تلك الحكاية الخطيرة عن وجود الفقر فى بلاد الانجليز. فلقد أجرت احدى الهيئات بحثا فى أحد أقاليم بريطانيا، ومنه تبين أن سبعين فى المائة من سكان ذلك الاقليم التعس يعيشون فى حالة فقر مدقع، فمعظم العائلات هناك ـ ياكبدى عليها ـ لا تربح أكثر من عشرة جنيهات فى الاسبوع الكامل!

خبر يمزق بالطبع نياط القلب، فإذا صح هذا الكلام فماذا إذن كانت فائدة كل تلك القرون من قتل الهنود والسود والبيض فى أربعة أركان الأرض؟ أهذه نهاية كل هذا التعب. إن بعض الأسرات البريطانية مازالت تربح فى الاسبوع مبلغا لا يزيد على الذى تربحه أسرات البلاد المنهوبة فى الشهر وربما فى العام؟!

محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

العسكرى الحزين



محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى ، تائه فى لندن محمد عفيفى

ناظرا إلى عسكرى البوليس الانجليزى لا أدرى لماذا يخيل إلى أنه ليس سعيدا فى حياته، لاشك أن للمطر اللندنى الوضيع أثره فى ذلك، إذ يلوذ منه المدنيون بالبيوت والبارات ويضطر هو أن يشربه كله فى عرض الطريق، لكنه بدا لى غير سعيد حتى فى تلك الساعات النادرة التى تطلع فيها الشمس أو تعد بالطلوع، ثمة نظرة حجرية فى عينيه توحى بصرامة أكثر مما يستلزمه إجراء بوليس عادى مثل ذرع الرصيف بتلك الخطوات البطيئة الواسعة.

ولربما كان السبب فى تلك الجهامة أنهم يصرون هناك على اختيار عساكرهم طوالا ممشوقى القوام يميلون إلى الوسامة، فرجل بهذه الصفات قد يعانى شيئا من المرارة المبررة بسبب هذه الوظيفة الصغيرة، شاعرا طول الوقت بأن مكانه الطبيعى ليس الرصيف وإنما شاشة السينما، وأن عمله الطبيعى ليس مطاردة اللصوص وإنما

مطاردة الحسان.

وهناك احتمال كبير لأن تكون من أسباب تعاسته تلك الخوذة المضحكة التى يضعونها فوق رأسه مثل سلطانية مقلوبة، والتى لا يمكن أن تكون لها أية فائدة فى غير أوقات المظاهرات المعادية لأمريكا كما أنه قد يكون بنطلونه هو السبب، باتساعه الشديد الذى يجعله أشبه ببنطلون على ساقى دمية فى فاترينة للعب الأطفال.

نعم هو ذلك البنطلون فى أغلب الظن، لا بسبب هذا الاتساع وحده وإنما بسبب ما يخيل إلى من أنه ـ على عكس بنطلونات الناس جميعا ـ ليس له جيوب، حقا إننى لا أستطيع أن أقطع بذلك بسبب طول الجاكتة، ولكن اذا كان لبنطلون العسكرى جيوب فلماذا لم أر يده موضوعه فى جيبه مرة واحدة؟ فإذا صح ظنى فلاشك أن هذا البنطلون يصبح نوعا من التعذيب، كلما هم المسكين بأن يدخل يده فى جيبه فيجد أنها قد دخلت فى لا شىء.

ولقد خطر لى أن أستوثق من الأمر بنفسى، بأن أقترب منه وأرفع ذيل جاكتته فى هدوء باحثا عن الجيب، لكننى قلت لنفسى إنه فى الغالب لن يرحب بهذا القدر الزائد من الفضول السياحى. بل إنه لن يرحب بمجرد سؤالى اياه إن كان له جيب أم لا، استنادا إلى ما وصفت لك من نظرته الحجرية الكارهة للحياة، فكيف يرحب بهذا السؤال الشخصى وهو كما دلتنى التجربة لا يرحب بسؤالى إياه أين يوجد شارع كذا؟ نعم هو يجيبنى دائما على هذا النوع الأخير من الأسئلة، ولكنه وهو يفعل يبدو من أمره أنه يكرهنى ويكره الزمن الذى أرغمه على اجابتى. أصبعه التى يشير بها إلى الطريق يتمنى فيما يبدو أن يدبها فى عينى، ولهجته لهجة رجل لا يرشدنى بقدر ما يشتمنى.



فى آخر الشارع زمجر صوت موتوسيكل هاجم نحوى كالوحش المجنون، فوثبت على الرصيف وأنا ألعن جنون السرعة المسيطر على شباب اليوم، ثم اقترب الموتوسيكل منى ورأيت راكبة فإذا به لا شباب اليوم ولا يحزنون، بل هى عجوز بنت ستين أو خمسين على الأقل!

فهناك شيئان ينتشران فى شوارع لندن كالوباء، الحمام الذى لا يجد من يأكله والعجائز الانجليزيات اللواتى لا يجدن من يلمهن فى البيت، لا يمكن لك أن تنعطف فى طريق إلا وترتطم بعجوز مقبلة من وراء الناصية، ولا يمكن أن يخطر لك الجلوس على دكة فى حديقة أو شارع إلا وتجد عجوزا قد سبقتك إليها.

هى ترفض الاعتراف - العجوز الانجليزية - بأنها قد راحت عليها، تموت ولا تقول يالله حسن الختام! وهى فيما يبدو تلفق عشرات الأسباب التى تبرر خروجها من البيت، مثل رغيف عيش تدعى أنهم

فى حاجة إليه، زاعمة أن حفيدها لا يستطيع أن ينوب عنها فى ذلك لأنه - ياضنايا - قد يصاب فى هذا البرد بالزكام، فإذا تصادف أن كان البيت فى غير حاجة إلى شىء فهناك كلبها الصغير الذى يجب أن تخرج به لكى تفسحه، غير مكترثة بما يتساقط من رذاذ يهدد بأن يكون مطرا، باسمة فى سعادة كلما اضطرت إلى أن تتوقف - منقادة للعزيز - عند هذه الشجرة أو تلك!

وهى فى تلك المشاوير تحب أن تكون أنيقة على طريقتها الخاصة، وكافة ورود الحديقة رأيتها فى فستان واحدة منهن على خلفية من الحشيش الأخضر. وعلى رأسها قبعة أشبه بسلة للفاكهة، ومن السلة تنبعث ريشة سرقتها من ذيل طاووس.

وفى البارات يجلسن ليشربن البيرة شوبا بعد شوب، ضاحكات بأصوات خشنة عالية تطغى على أصوات الرجال، لم يسمعن - فيما يبدو - بتعبير «سن اليأس» الذى نطلقه نحن على الأنثى حين تكف عن الحيض، مصرات على ألا يلقين عزرائيل بغير شىء من رغوة البيرة على شفاههن!

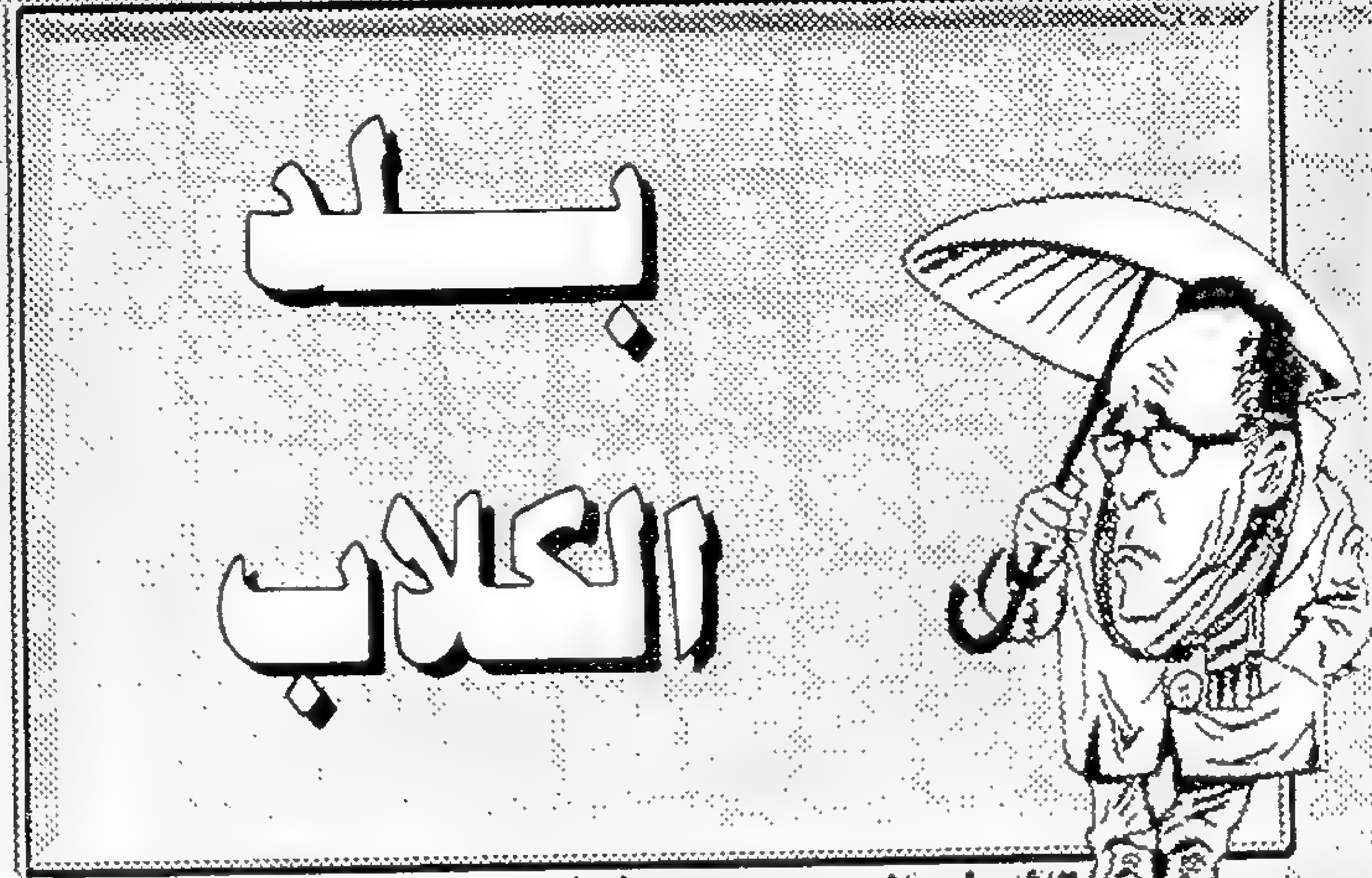


والعواجيز من الخناشير الانجليز لا يقلون عن عجائز النساء عنادا وتشبثا مستميتا بالحياة، وخذ على سبيل المثال ذلك الرجل الذى رأيته فى أحد المشارب، مقوس الظهر حتى ليوشك أن يلامس بأنفه ركبتيه، وعلى ساقيه المرتعدتين بشدة يحمل ما لا يمكن أن يقل عن ثمانين عاما، سار نحو البار يتخلع وينتفض وأكاد أسمع لعظامه صريرا، وطلب من عاملة البار بصوته الأهتم شيئا لم تفهمه لأول وهلة، فاستعادته عدة مرات قبل أن تدرك أنه يطلب شفاطة! فى استغراب نظرت إليه ثم قدمت له الشفاطة التى تناولها بيد ترتعد مثل ذراعه ومثل ساقيه، وعاد يتخلع ويكركب متجها إلى مائدة رأيت فوقها كوبا من البيرة لا أدرى ما الذى أوصله إلى هناك، ثم جلس الوغد وبيده المرتعشة راح ينشن بالشفاطة نحو الكوب حتى نجح فى أن يضعها فى الشراب، ثم مال إلى الأمام وأطبق بشفتيه على الشفاطة

وهات يا شفط!

هى قطعا طريقة غير تقليدية لشرب البيرة ولكنها كانت الطريقة الوحيدة المتاحة له، فبتلك اليد المهزوزة ما كان الرجل ليظفر من كوب البيرة بأكثر من جرعة صغيرة، وباقى الكوب على هدومه!

آخر عناد وآخر اصرار على كل من الحياة والبيرة، ليس غير الموت وحده يستطيع أن يحدد إقامته وأن يحرمه من كوبه المحبوب، فلو اشتد عليه المرض حتى ألزمه الفراش فما أظنه يقلع عن الشراب، وهناك فى السرير مرتعدا عاجزا أهتم، ما أشك فى أنه سوف يصرخ فيمن حوله مطالبا إياهم بزجاجة البيرة وبزازة!



وقع غريب لأقدام تدب وراء ظهرى فى ممر الاتوبيس، وملتفتا إلى مصدر الصوت دخل فى كادر النظارة ما يشبه أن يكون رأسا لأسد، مدى لحظة قبل أن أتبين أنه رأس كلب ضخم تقوده احدى عجائز لندن اللعينات. وبجلوس السيدة «برك» الكلب على الأرض فكاد لثقله يهز الاتوبيس هزا. وراكب آخر وصل وكان لزاما عليه لكى يصل إلى المقعد الخالى أن يعبر فوق الكلب، وحدث ذلك فى اللحظة التى تحرك فيها المذكور فتعثر الرجل فيه وأوشك على السقوط، فابتسمت العجوز قائلة له: إنها آسفة، وأجابها بقوله: إنه هو الذى آسف، بإخلاص يقولها كأنما الاتوبيسات قد صنعت أصلا لركوب الكلاب قبل أن يتطفل عليها المتطفلون من بنى البشر. ونفس هذا المعنى قرأته فى عين الكلب التى صوبها إلى مدى لحظة بنظرة لا تخلو من الاستغراب، ثم التفت إلى صاحبته كأنما يقول لها: شايفة ركاب آخر زمن؟

فـالكلاب فى لندن - مثل العجائز اللواتى يسحبنها ومثل الحمام - شىء أشبه بالوباء، واهتمام سكسونى بالجنس الكلبى يوشك أن يرتفع من مرتبة التدليل إلى مرتبة التقديس. ولاشك أننى كنت أجد نفسى فى موقف لا يخلو من الحرج لو أننى دخلت إلى ذلك الصالون الذى مررت به لكى أحلق شعرى، قبل أن أكمل قراءة المكتوب على اللافتة وأكتشف أنه صالون حلاقة للكلاب!

محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد ع... ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى

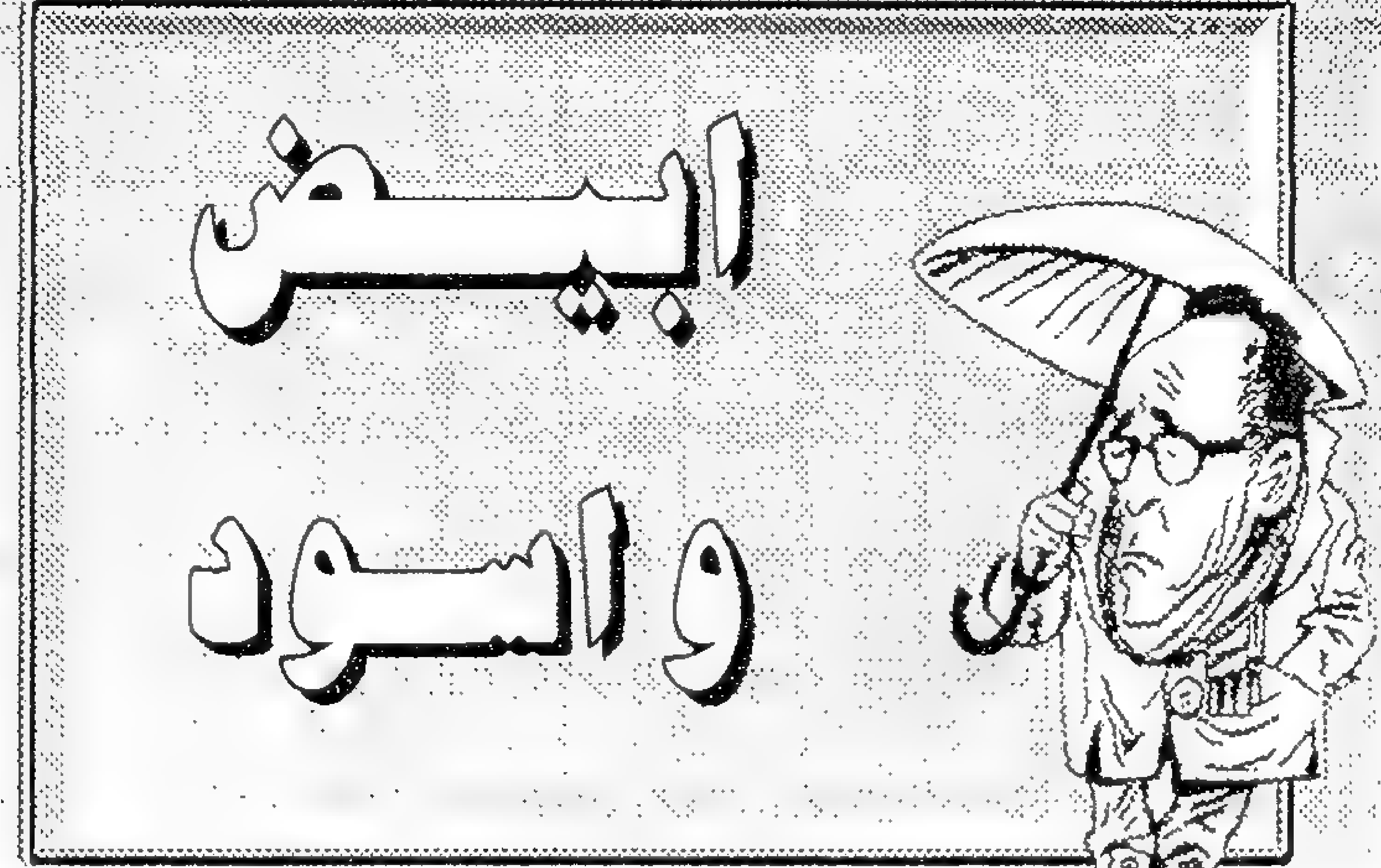
الشمس بالطبع قد أضحت مرة أخرى فى خبر كان، والأمطار الوضيعة تنهمر على دماغى وليس معى مظلة، وبينى وبين الفندق نحو مائتى متر يجب أن أقطعها على قدمى، بدأت بالطبع بمشية سريعة إلا أنها وقورة، وابتسامة فلسفية توهم الآخرين بأننى أكبر من تلك الظواهر الطبيعية السخيفة! غير أننى مع بدء تساقط القطط والكلاب رأيت أن السير السريع يجبْ أن يتحول إلى حنجلة، تلك الحنجلة التى ما برحت بدورها أن تحولت إلى جرى صريح بكل قوتى وملعون أبو الوقار! وبينما أجرى أسب وألعن مستخدما كل ما عندى من ألفاظ بذيئة أعرف أن أحدا لن يفهم منها شيئا.

لكن الجرى لم يمنعنى من الفلسفة، إذ ومض فى ذهنى ذلك الخاطر الفلسفى عن السبب الذى من أجله كان الرجل الانجليزى أبرد من

غيره بعض الشىء. وهذا السبب هو أن الرجل الانجليزى قد وجد لزاما عليه أن يختار بين أمرين: إما أن يكون باردا وإما أن يجن! فلو أنه سمح لأعصابه بأن تثور كلما هطل المطر، ولو أنه راح مثلى يسب ويلعن فسوف تتحول حياته كلها إلى حالة من الردح المتواصل، ولسوف تنعكس هذه الحالة العصبية على سلوكه العام بما يهدده بفقد كافة أصدقائه، وربما انتهى الأمر بفصله من العمل وعودته إلى البيت لكى يجد أن زوجته قد أخذت العيال وطفشت.

إمسك أعصابك ياجورج! اهدأ ياجون! خليك بارد ياوليام! هكذا يقول الرجل الانجليزى لنفسه طوال الوقت، جيلا بعد جيل وهو يجرى تحت تلك الأمطار اللعينة حتى تحول التطبع إلى طبع، ونشأ هذا الرجل الذى اضطر إلى أن يكون باردا. ولذلك يقول الذين يعرفون الاستراليين أنهم ليسوا باردين مثل أجدادهم الانجليز، ولاشك أن الانجليزى المعاصر لو سافر إلى استراليا وقضى بعض الوقت هناك لبدأ يتغير تدريجيا مثل حلزونة تشعر بحرارة الشمس فتمد رأسها وتخرج من قوقعتها، شيئا فشيئا يذيب الدفء ثلوج نفسه ويزيل جهامته ويجعله مرحا مثل القنفذ الذى يتقافز حوله فى الشمس المشرقة.

وفى هذا الانهماك الفلسفى وأنا أجرى نسيت أن أتخذ ذلك الاحتياط اللازم بما يناسب الموقف، وهو أن ألف فى الجريدة رغيف العيش الذى كنت قد اشتريته لزوم الغداء، وهناك فى الفندق تبين لى اننى أحمل بدلا من الرغيف كتلة من الدقيق المعجون بماء المطر، أكلة لا تصلح لكائن سوى البط أو الفراخ، وللأسف لم يكن فى الفندق أرز، وإلا لأضفت بعضا منه إلى الرغيف وأكلته فتة!



لابد أنك قرأت كثيرا عن السفاحين أولاد الكلب، الذين أبحروا ذات يوم من موانىء بريطانيا والبرتغال وغيرهما إلى شواطىء أفريقيا، وذلك لممارسة أوسخ تجارة يمكن أن يمارسها الانسان وهى تجارة الانسان نفسه! بقوة السلاح الحديث يصيدون السود العزل مثلما تصيد الأرانب البرية أو الغزلان، وفى قاع السفينة يكدسونهم كالخنازير، فى رحلة طويلة إلى المستعمرات فى الأمريكتين، فى خلالها يموت منهم بالمرض والجوع من يموت، وبالرصاص يموت من يخطر له أن يثور، وهناك فى تلك المستعمرات يسمونهم بالآلات الحية اللازمة لاستغلال المزرعة، تماما مثل ما فيها من البقر والجاموس. ولعله مما يدلك على بشاعة تلك الحرفة أن أحد أولئك القراصنة - وهذا إنجليزى - عمد فى ذات غارة على أولئك السود التعساء إلى قتل

عدة آلاف منهم فى سبيل أن يصطاد أربعمائة لا غير!

ساورتنى تلك الخواطر وأنا جالس فى مترو لندن، وغير بعيد منى منظر يحتاج المرء إلى كثير من الجهد لكى يصدق أنه يراه، منظر تلك اليد البيضاء للشاب الانجليزى وقد اشتبكت فى حنان باليد السوداء لصاحبته الافريقية المسمسمة. وبين حين وآخر تتضاغط اليدان فى محبة زائدة، فى أجمل صورة بالأبيض والأسود للأعنصرية وللتضامن الأفرو أوروبى..

فلاشك أن شيئا لا يقل عن المعجزة قد وقع حتى جعل من الممكن أن ينحدر هذا الشاب الانسانى الرقيق من صلب ذلك السفاح المجرم ابن ستين كلب! ما هو ذلك الشىء لا أدرى ولكنه قد حدث، ومن الابتذال بالطبع أن أقول إن هذا الشاب لا يفعل شيئا سوى التكفير عن ذنب الأجداد.

وكانت هناك فى عينه نظرة متجاهلة لمن يجلسون حوله ولا تخلو من لمسة ن التحدى، إذ يعلم أن ليس كل من يرون هذا المنظر يباركونه من قلوبهم، لاسيما تلك الشلة الجالسة هناك والمكونة فيما يبدو من سياح أمريكان. وهو فى الوقت نفسه يعرض شخصه لتهمة القصور، وأنه لو لم تنبذه البنات البيض لما رضى لنفسه بتلك الصديقة السوداء، ولكنه يقول للناس بتلك النظرة المتحدية إن الأمر لا يهمه بالمرة وإنه حر فى اختيار صديقته، وأنه يؤمن بالمساواة بين كل البشر، وبالاختصار كده طظ فيكم!

وفى عين البنت نظرة سعيدة حالمة، وشبح ابتسامة يتلاعب على زاوية فمها لا يخلو للأسف من شبهة مرارة صامتة. فهى بدورها تقرأ ما يدور فى أدمغة الناس حولهما من أنها حين ضمت ذلك الشاب

الأبيض إليها قد سرقته من أهله وأخذت فيه شيئا أكبر مما تستحق.

أحببت الاثنين من قلبى وتمنيت لهما أطيب الأوقات، وتذكرت كلمة كنت قد كتبتها ذات يوم عن التهجين، وعن مدى غباء الانسان الذى يعمل على تحسين كافة السلالات ماعدا سلالته الخاصة، غير مكترث بعبر التاريخ التى تشير إلى أنه ما من حضارة كبيرة قامت إلا على أثر هجرات متعددة واختلاط بين عدد من الشعوب أدى إلى ظهور تلك الطفرة الحضارية الجديدة.

وتضاغطت اليدان من جديد فى حنان فازداد حبى لهما، ولذلك - أو بالرغم من ذلك - تمنيت لهما أن يتزوجا وينجبا طفلا. فلست أشك فى أنه سوف يكون أجود وأمتن من أى طفل يولد أوروبيا أو افريقيا خالصا، دعك من أن لونه سيكون جميلا جدا، أم تراك سوف تجادلنى فى جمال لون القهوة باللبن؟



والسود فى لندن كثيرون إلى درجة غريبة حقا، ولرب قطاع معين فى لحظة معينة فى الشارع اللندنى يوحى إليك - لو انك نقلت إلى لندن معصوب العينين - بأنك قد نقلت إلى كينيا لا إلى بريطانيا!

ولعلك تذكر الآلاف الذين امتلأت بهم مطارات بريطانيا وموانئها عندما صدر ذلك القرار الخاص بوقف الهجرة إليها بعد تاريخ معين، وهى ظاهرة وجدت من الانجليز من عارضها خوفا من أن يتحول الوضع فى بريطانيا إلى ما يشبه الوضع فى أمريكا، وفى الوقت نفسه وجدت من يؤيدها مستندا إلى ذلك الرد المنطقى:

- إذا نحن أوقفنا هجرة السود إلى بريطانيا فمن الذى يقود القطارات؟!

وذلك أن نصف قطارات المترو التى ركبتها كان يتصدرها سائق

افريقى، وتلك الوظيفة ليست من الوظائف المحببة للانجليز لما فيها من مشقة بالغة وشبه انعدام لإجازات آخر الاسبوع المقدسة. وإذا كان الافريقى الفقير يفضل أن يقود قطارا فى لندن على أن يسوق بقرة عجفاء فى كينيا، فإن الانجليزى الفقير يفضل أن يعيش على الاعانة الحكومية أو على ما يدره عليه ماندولين يداعب أوتاره على أرصفة بيكاديللى.

فلو أن الحال فى سائر العواصم التى لم أزرها مثل الحال فى لندن، أى لو كانت نسبة السود واحدة بين سائقى القطارات وسائر وسائل المواصلات، أفليس من الطريف أن نصل إلى هذه النتيجة الغريبة: أن السود هم الذين - رمزيا على الأقل - يقودون الحركة فى العالم كله؟!



منزلقا على سلم المترو المتحرك بالوقار المناسب لرجل يقشر باكو شيكولاتة كادبرى بالزبيب واللوز، صعد نحوى على السلم المجاور - بنفس الانزلاق إلا أنه إلى أعلى - منظر قابلته بالبرود المتوقع منى بعد عدة أسابيع فى لندن، منظر الحضن المعلن على الملأ حالة حب بين ذكر وأنثى، حتى بالرغم من تلك اللحية الحمراء التى تميز بها هذا الذكر، والتى كانت كثة بدرجة قد تثير حسد أسقف كانتربرى نفسه اذا افترضنا أن كانتربرى تتطلب من أسقفها لحية. وحيث أن البنت كانت تقف على درجة من السلم أعلا من صاحبها فقد انتهز الوغد الملتحى تلك الفرصة وأسند على صدرها كلا من رأسه ولحيته، مسلما الأخيرة لأصابعها الحنون التى تجوس بين الشعيرات الكثيفة مثل قردة تفلى صغيرها!

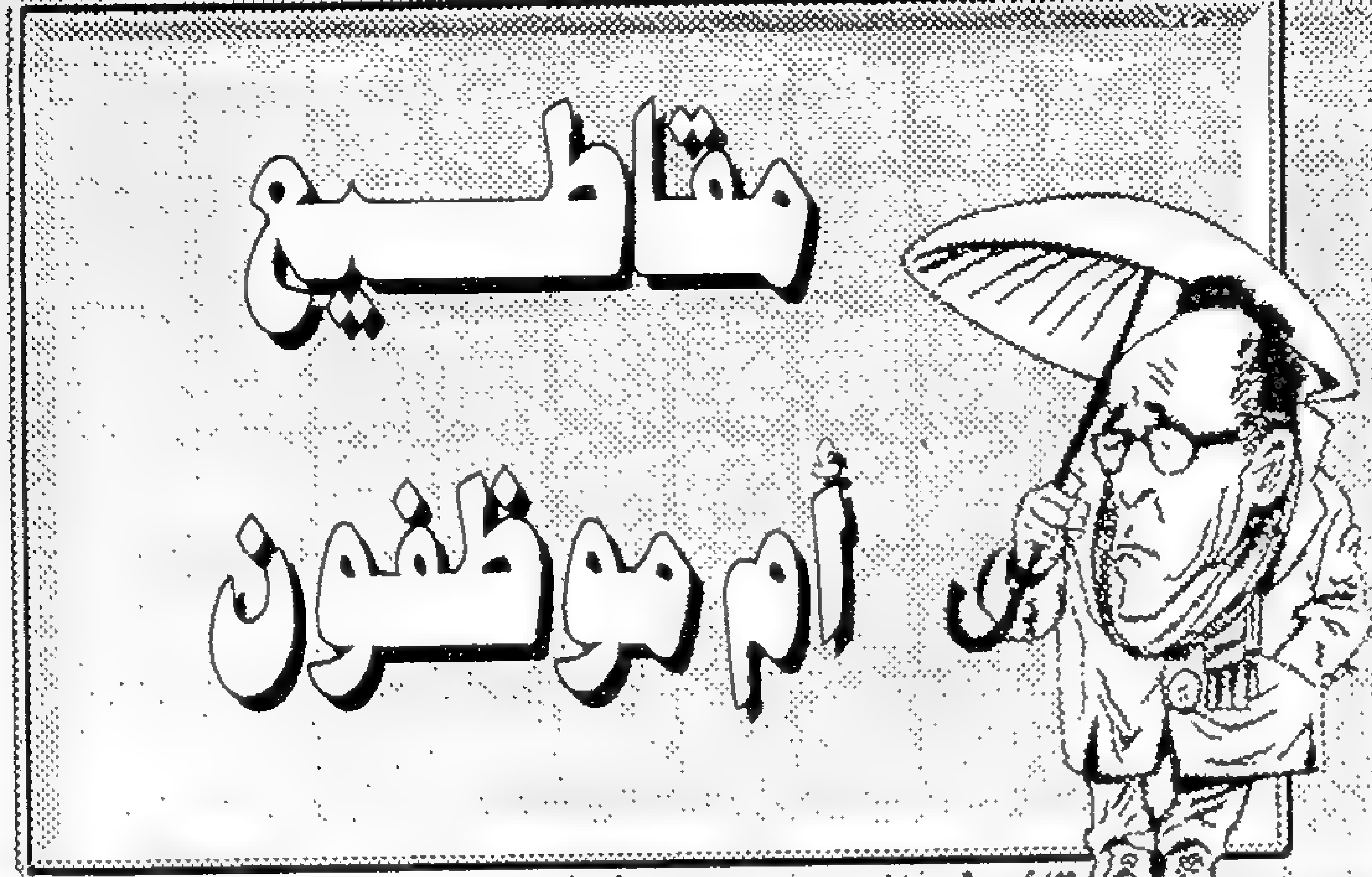
ومن خلفهما كان ينزلق شاب وفتاة آخران فى حالة لا تقبيلية

غريبة، الأمر الذى يدل على أنهما قد وصلا فى حبهما إلى درجة خطيرة من الفتور، وأنه قد مضى على تعارفهما ما لا يمكن أن يقل عن ثلاثة أسابيع كاملة، غير أن البنت ما لبثت أن تداركت الموقف بأن ضمت الولد إليها وقبلته، مضطرة إياه إلى أن يرد التحية بأحسن منها، وتلك ظاهرة لاحظتها فى أكثر من قبلة لندنية من مئات القبل التى لا تبرح تزقزق كالعصافير حولى، إن البنت الغربية هى التى بدأت تمسك زمام المبادرة، ملتمسة تلك القبلة بجذبة لا تخلو من العنف العابث للذكر المتردد مع مد نحوه للبوز الملائم العطشان.

روتينية جدا تلك القبلات العلنية إلى درجة أننى رأيت شابا من أبطالها ينزع فمه عن فم صاحبته مدى لحظة تتيح له أن يتثاءب توطئة لأن يعاود القبلة من جديد! وبهذا الملل الجنسى يتأكد أن أوروبا العصرية قد نجحت فعلا فى إلغاء الجنس كمشكلة، بعد قرون طويلة قضتها أوروبا المسيحية وهى تحاول إلغاءه كظاهرة. ولعل الصناعة قد خلقت لها من المشاكل الكبيرة ما جعل لزاما عليها أن تبدأ بإلغاء تلك المشكلة الطبيعية الصغيرة.

والشرقى منا قد يجد صعوبة فى الجزم بأيهما أحسن - قبلة تدور على سلم المترو أو أخرى تدور تحت سلم العمارة! أو قل أيهما أقرب إلى الصحة الشبع إلى درجة التثاؤب أو قضاء الساعات فى خيالات الجنس المجهولة، فى الحجرات الموحشة على صوت مطربة فى الراديو يتمرغ فى تأوهات الحرمان - حرمان الشباب لا المطربة طبعا!

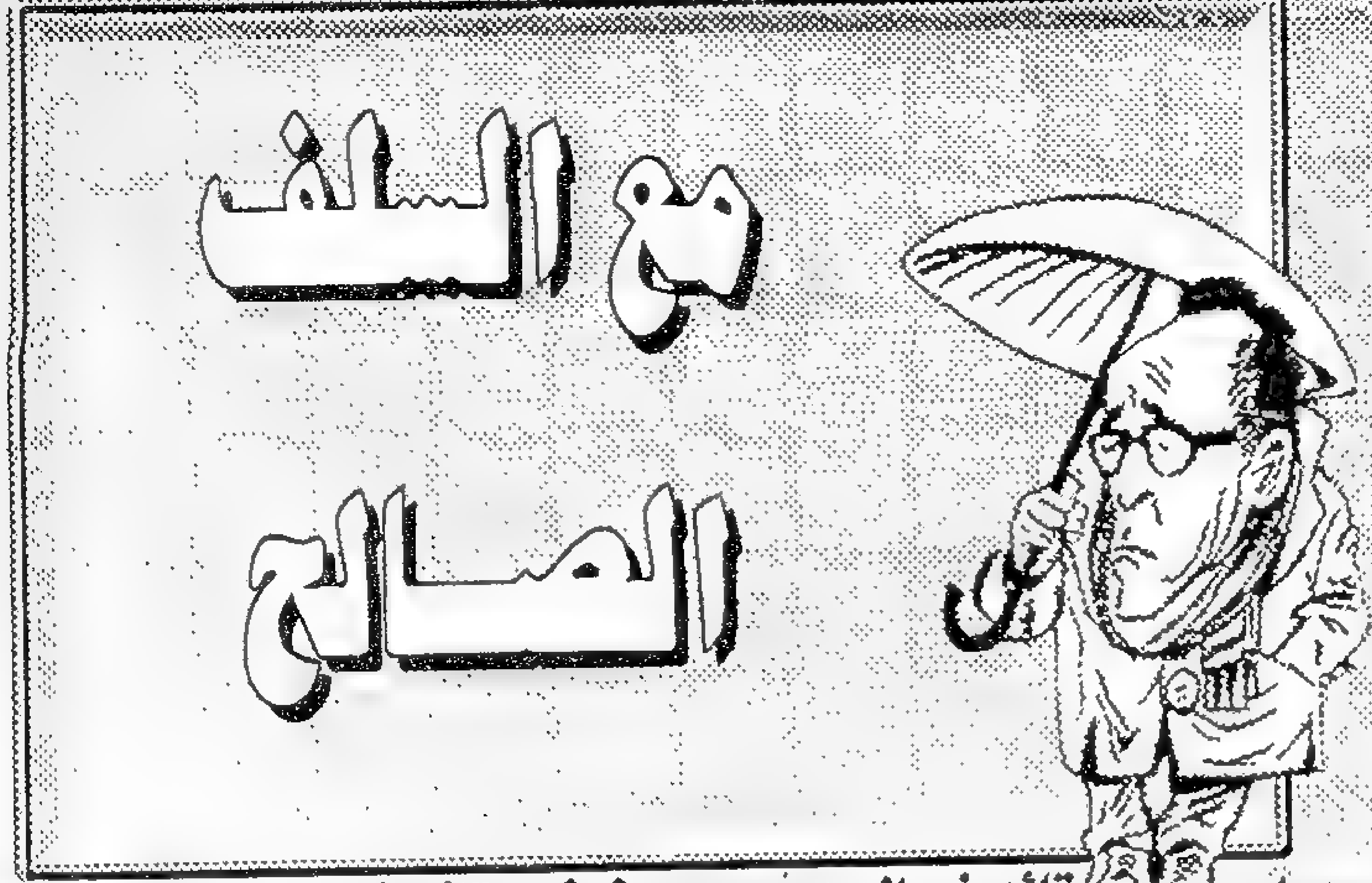
ومهما قال الشرقى فسيظل الشارع الغربى على حاله، وسيظل يمتزج فيه أزيز الموتورات برنين القبلات، فدعنا من هذه الفلسفة التى أنستنى أن فى يدى باكو من الكادبرى المقشر.



فى بيكاديللى من جديد، ومازال المقاطيع اياهم مرابطين حول التمثال، وازاء الكاميرات التى ما برحت تطرقع حولهم، وبعد أن صاروا أحد المعالم السياحية فى المدينة مثل حرس الملكة، بدأت تساورنى بشأنهم فكرة جديدة، وهى أنهم فى أغلب الظن موظفون فى مصلحة السياحة! لا فلسفة هناك ولا يحزنون، وما هذه الثياب الغريبة إلا بدل الشغل! السياح يحبون أن يشعروا أن فى العالم «موجة جديدة» وفلسفة جديدة، فلماذا لا نقدم لهم تلك الصورة السيريالية الملفقة لندخل السرور إلى قلوبهم فى مقابل شىء من فلوسهم؟ وأى تمثال آخر غير تمثال الحب يمكن أن يساهم عن طريق الرمز فى إلهاب العواطف والخيالات السائحة؟

فإذا صحت هذه الفكرة فلا يبعد أن يأتى يوم تمتد فيه موجة

الاضـرابات المتـلاحـقـة فى لندن إلى هؤلاء الموظفـين، وعند ذلك ينظر ايروس تحتـه فلا يرى بنتا حافية ولا شابا يتقصع! وهنا يتعين على الحكومة أن تحضر موظفين غيرهم لتحطيم الاضراب، وربما تحول التمثال إلى شرطى متنكر يصوب إلى الكارهين سهما حقيقيا!



كإنسان محب لجده الحيوان لم يكن معقولا أن أجدنى فى لندن دون أن أزور حديقة الحيوان فيها، بالرغم من أن ثمن دخولها سبعة شلنات ونصف، ومن أننى توجهت إليها فى أيامى الأخيرة ولم يبق فى جيبى سوى اللضى وإن كنت لا أعرف ما هو اللضى.

وهى حديقة جميلة حقا لا أستطيع أن أعترض فيها على شىء سوى عشرات اللافتات التى تقول إنه من الممنوع اطعام الحيوانات، حتى وإن كان ذلك - كما تقول اللافتات - حرصاً على صحتها. فلاشك أن هذا أمر مزعج للطفل البريطانى اذا كان من نفس طينة أطفالى، الذين لا تكتمل لهم متعة زيارة الحديقة ما لم يطعموا القرود والدبة والزرافة، دعك من القرش الذى يودعونه فى زلعومة الفيل.

ولعل أجمل ما فى الحديقة ذلك البناء الضخم مثل مسرح البالون،

المصنوع من شبكة معدنية رقيقة لا تحجب النور أو الهواء، وفيها ترتع عشرات الأنواع من الطيور الملونة وغير الملونة حرة طليقة، وأنت أيضا لك حق الدخول إليها لترتع مع نفس الطيور، بألفة مثيرة حقا إذا كنت تميل مثلى إلى سلفك الصالح.

ومما لفت نظرى فيها أيضا ذلك العدد الكبير من التماسيح الضخمة المظلظلة، فى مقابل تلك السحلية التى أذكر أننى رأيتها يوما فى حديقتنا بالجيزة، والتى لم أوافق على أنها تمساح إلا لكى لا أكذب الرجل الذى كتب تلك الكلمة على القفص. وحيث اننى لا أذكر اننى رأيته فى العهد الأخير فأغلب الظن أنه مات من الوحدة والملل - التمساح لا الرجل طبعا، فلست أدرى كيف توجد فى لندن تلك الثروة التمساحية الضخمة فى مقابل ذلك الفقر التمساحى عندنا، والمفروض فينا أننا نتسلى على ضفاف النيل باطعام التماسيح فى أيام الجمعة.

وناظرا إلى الأسود أدهشنى أنها مثل الأسود التى فى حديقتنا تماما، الأمر الذى يدل على أن الحيوانات ستظل دائما أقرب إلى المحافظة على تقاليدها من الانسان. فلا الأسد أطال شعره مثلما فعل الرجل الغربى، ولا أبرزت زوجته من خبايا جسمها أكثر مما تبرز أنثى الأسد فى الجيزة.

لكننى للأسف لم أنجح فى الاطلاع على كل تفصيلات الحديقة، فهل يمكن أن تمر ساعة فى المدينة المبتلة دون أن ينهمر من المطر ما يفسد عليك أية متعة حتى ولو كانت زيارة أسلافك؟

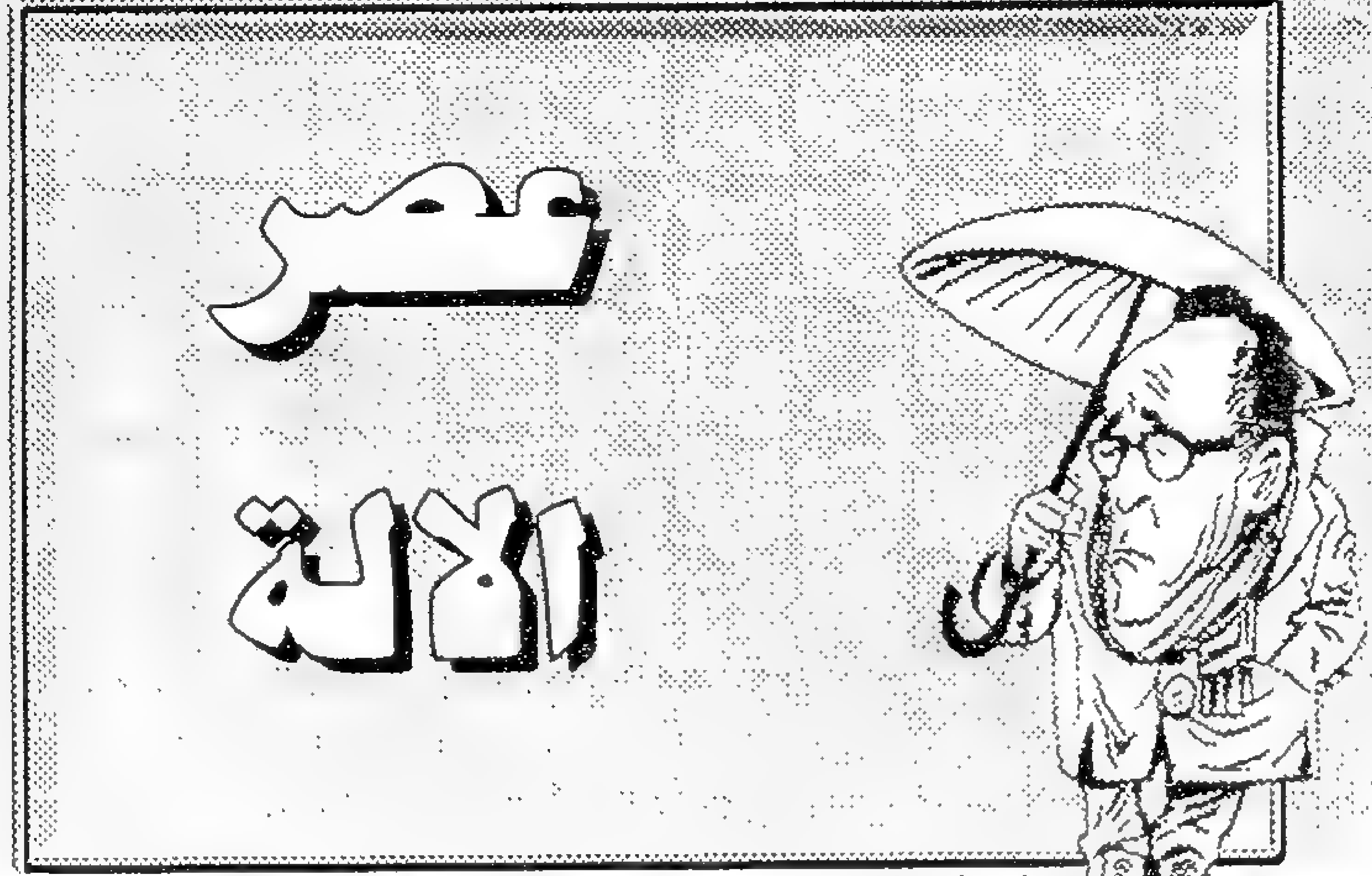


وصوت رنين خافت لجرس صغير يشخلل فى الحديقة الخلفية للفندق وهو لسبب ما يصل إلى أذنى من جهات مختلفة، مرة من هنا ومرة من هناك، فنهضت ونظرت من النافذة حيث رأيت قطا أو قطة - لا أدرى - يتقافز فى الحديقة كعادة القطط مطاردا شيئا ما. ومن تنقل صوت الجرس مع حركة القط بدا أنه مرتبط به بطريقة ما. الأمر الذى ثبت لى عندما تبينت بتدقيق النظر أن هناك جرسا صغيرا يتدلى من عنقه ويشخلل معه كلما نط هنا أو هناك.

وبسؤال البنت التى تأتى لتنظيف الحجرة عن الغرض من ذلك الجرس قالت أنه يرجع إلى مشاعر الرحمة التى يزخر بها صدر صاحبة البيت، اذ كرهت أن تتعرض عصافير الحديقة للخطر من قطها فركبت فى عنقه ذلك الجرس الذى ينبه العصافير وسائر

الكائنات اللطيفة إلى ذلك الخطر المقترب، وأما من ناحية القط فهو ليس محتاجا إلى أكل العصافير بسبب ما يشهد به شحمه الكثير على وفرة ما يعطى له من ألوان الغذاء داخل البيت.

كلام معقول وعاطفة تشكر عليها تلك السيدة قطعا، وإن كنت أعتقد أن الحاجة تدعو بشدة إلى تعليق جرس مماثل فى عنق كائن آخر هو العنق الشخصى للسيدة الطيبة! فبمثل هذا الجرس كانت تفكر مرتين قبل أن تتسلل إلى الحجرة لكى تضع بعض الماء بدلا من الجرعة التى نالتها من زجاجة الويسكى التى أهدانى إياها أحد الأصدقاء لزوم الدفء فى العاصمة الباردة!



متعة ميكانيكية غامرة وأنا أدس نصف الكراون فى ثقب الماكينة التى تبيع السجائر، وبينما أستخرج العلبة من المكان المخصص أسمع شخللة لطيفة لعدد من البنسات تتساقط فى مكان آخر، وهى الفكة التى حسبتها الماكينة الخبيثة كحق تبقى لى من نصف الكراون!

والتماسا لتلك المتعة الميكانيكية شربت أكثر من زجاجة كازوزة مع اننى لا أحب الكازوزة وأكلت أكثر من باكو شيكولاتة مع أنها توجع بطنى، وذات مرة وضعت قطعة العملة المطلوبة فى الثقب فإذا بها تنزل فى الوعاء المخصص دون أن تقدم لى فى مقابلها أى علبة، فالتقطت العملة وأودعتها فى الثقب من جديد، وإذا بها تنزل لى فى الوعاء المذكور مرة أخرى، كلما أودعتها نزلت لى وأنا لا أفهم لماذا يحدث ذلك، إلى أن ظهرت لى على لوحة خاصة كلمات كهربائية تقول لى: لا

بيع! أى أنها الماكينة ـ قد صبرت على كل ذلك الوقت منتظرة أن أيأس وانصـرف فلمـا وجـدتنى لا أيأس لـم تجـد مـفـرا من اخطارى بتلك الكلمات أنها تعتذر عن البيع لسبب أو آخر!

فابتعدت عنها متلفتا حولى بالخجل المناسب من عباطتى، وحمدت الله على أننى قـد رأيت تلك الكلمـات وامـتنعت عن مـواصلة ايداع العـملة ملحـا فى طلب العلبة. فـلا يستـبعـد لو اننى واصلت ازعـاج الماكينة بهذا الشكل أن تظهـر لى على اللوحـة كلمـة تهزىء تزعـجنى بالرغم من أنها بالكهرباء!

فلست أدرى لماذا لا نسـتـورد عندنا تلك الماكـينات اللطيـفـة أو نصنعـها، فلاشك أن ماكينة من هذا النوع سوف تدخل البـهجة إلى أكـثـر من قلب مـصـرى. وبالنسـبـة للكازوزة أعـتـقـد أن تلك المتـعة الأوتوماتيكية فى الحصول على الزجاجة سوف تجعلك أقل انزعاجا عند وصولك فى تجرعك للسائل إلى الصرصـار الصـغير السابح فيه. نعم نـحن فى حـاجـة إلى ذلك النوع من الماكـينات فى هذاالـوقت الذى أكثرنا فيه من الحديث عن فنون التكنولوجى.



بخطوات واسعة وواثقة سارت الفتاة فى لباس غريب لا تعرف إن كان بدلة أخيها أو بيجامة أختها، وعلى صدرها الجرىء وبالخط العريض نقشت تلك الكلمة الصغيرة ذات الحروف الثلاثة Sex! ومعناها إن كنت لا تعرف هو «الجنس»، وتلك الكلمة التى لا أظن انك - شأنك فى ذلك شأنى - قد رأيتها مكتوبة على صدر أى بنت، حتى ولو كانت من ذوات الدوسيهات!

فإذا تركنا الأخلاقيات جانبا، وإذا تركنا فكرة أنه اعلان لا لزوم له بالمرة شأنه شأن لوحة أعلقها أنا على صدرى تقول للناس اننى صحفى، فليس من شك فى أننا لا نستطيع أن ننكر على الفتاة تلك الدرجة النادرة التى تتمتع بها من الجرأة والقدرة على التحدى. كما أننا - وهذا أهم - لا يسعنا سوى أن نشهد بالقدرة الفذة للشارع

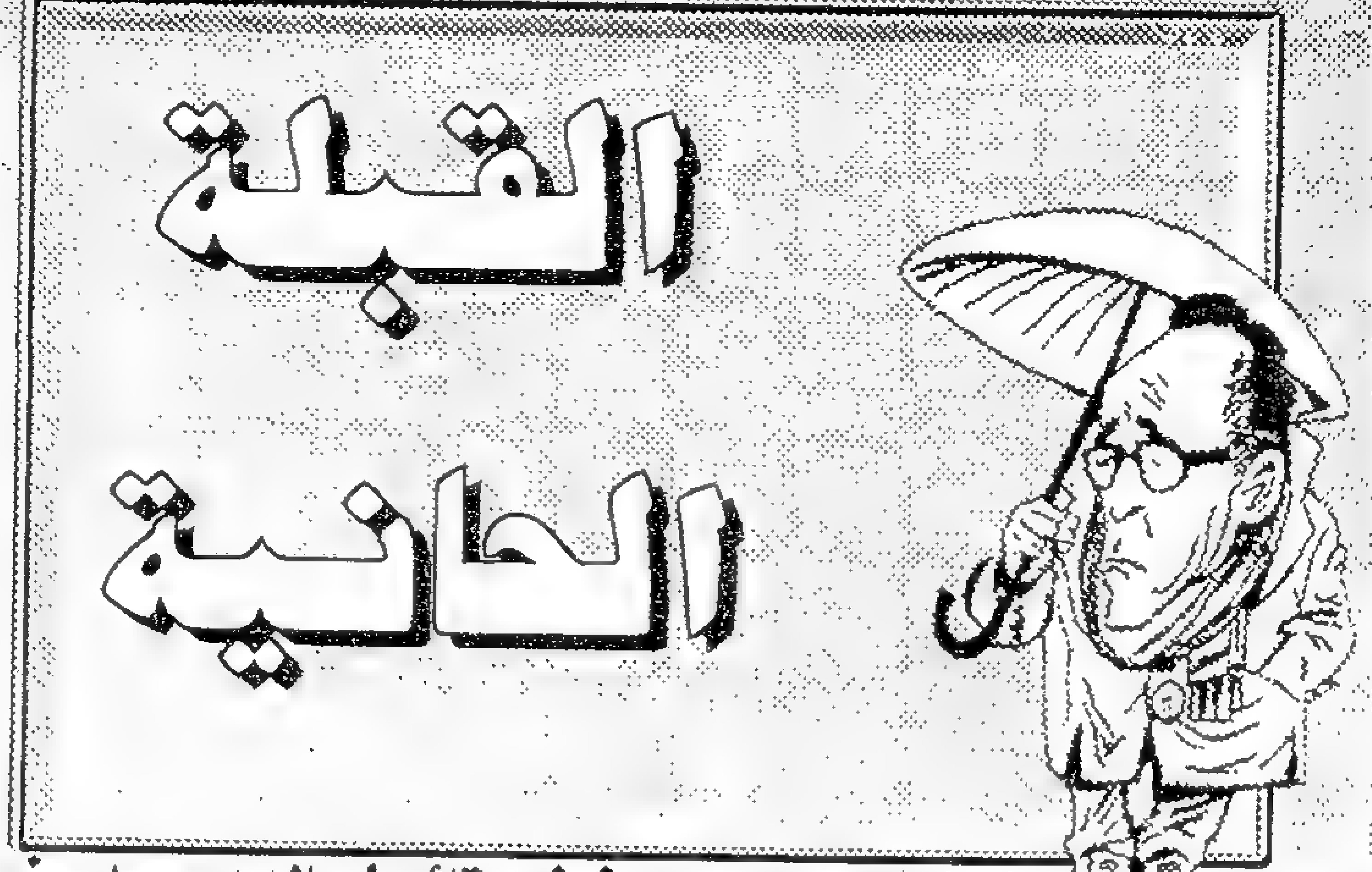
اللندنى على قبول هذا اللون من التحديات. وسط الزحام تختال البنت باعلانها وليس ثمة من يعترض طريقها أو يلقى إليها بالا، تماما كما لو كان المكتوب على صدرها اعلانا عن ماركة سجائر أو فيلم سينمائى، أو حتى حكمة أو قولا مأثورا! نظرات سريعة تقرأ الكلمة ثم ترتد عنها، بابتسامة صغيرة ساخرة هنا أو هناك.

اعلان كهذا لا يمكن بالطبع أن يظهر فى الشارع القاهرى، حيث أن مفهومنا القانونى لما يخدش حياء الناس سوف يخول لكل العساكر حق القبض عليها، ولكل المواطنين حق التبليغ عنها. ولكنه حتى بغير الناحية القانونية لا أظن أن بنتا بهذه الصورة يمكن أن تظهر فى شوارع القاهرة. فلو تصادف أن وجدت البنت التى تحتكم على هذا القدر من الجرأة - وهذا مستحيل - فهى تعرف جيدا ماذا سوف يحدث لها. هذا المشوار سوف يتكالبون عليها لاسيما لو سولت لها نفسها أن تركب الترام. وهذا بالطبع ما لم يستل أحد أهل الورع سكينا أو مطواة، ومحوقلا مستغفرا يغمدها فى صدر البنت ويضمن قصرا فى الجنة.

بديهى أن ذهنك لم يتجه إلى اننى - فى حديثى عن جرأة كل من البنت والشارع اللندنى - أحبذ هذا اللون من العناوين على صدور البنات أو على أى مكان آخر من أجسامهم، فالابتذال لم يكن فى أى يوم من الأمور التى تستهوينى، إنما أردت أن أسجل للشارع اللندنى قدرته الفذة على ضبط النفس، ومبالغاته فى تقديس حرية الفرد حتى فى أن يبتذل نفسه.

وفى النهاية لا أفهم السبب الذى من أجله اكتفت البنت بتلك الكلمة

الواحدة مع أن صدرها كان يتسع للمزيد من التفصيلات. فلاشك أن عنوانا كبيرا كهذا كان يحتاج إلى بعض السطور الصغيرة التفسيرية، توضيحا منها لماذا تعنيه على وجه التحقيق بكلمة الجنس، هل هى مثلا معه أو ضده، وهل تعنى به الجنس بين الأزواج أو بين غيرهم، على سبيل التسلية أو التجارة، وما إلى ذلك من المعلومات التى يحتاج إليها غريب مثلى، فهذا هو أحد العيوب التى ضايقتنى فى الانجليز ميلهم الشديد إلى الغموض!



وطوله لا يقل عن مترين وطول شعره نصف متر، فى بنطلون مهلهل من نوع «البلوجينز»، وبقع لونية كبيرة تلطخ البنطلون إمعانا من صاحبه فى تحقيق أكبر درجة من البهدلة العامة، فإذا تابعت البنطلون إلى أسفل وجدت صاحبه حافيا، قدماه الكبيرتان تتلاقى مع قدمين لحافية مثله تقف مستندة إلى صدره وبين ذراعيه، ليس فى هايد بارك ولا فى ركن مظلم من لندن، وإنما تحت الأضواء الساطعة، على ناصية شارع شافستبرى الذى يمتلىء فى ذلك الوقت بآلاف المواطنين والسياح الذين حضروا للتسكع فى حى سوهو.

ومثل مقاطيع ايروس قيل لى عن هذا اللون من الناس أنهم يرفضون كل أنواع الرسميات والتقاليد وينادون بالعودة إلى الطبيعة، وأنا شخصيا لا أجد أى علاقة بين الحفاء والفلسفة، واذا كان لابد

من الفلسفة وخلع الأشياء فلاشك أن هناك من القطع الكسائية ما ينطوى خلعه على عمق فلسفى أكبر. وما أظن هذا الفيلسوف الحافى سيكون قادرا على مواصلة فلسفته لو أصيب بالروماتيزم من طول وقوفه على الرصيف البارد المبتل، أو على الأقل لو دخلت فى رجله شظية من زجاجة بيرة أسقطها سكران غير متفلسف.

لكن المنظر على العموم شهادة جديدة للشارع اللندنى بالقدرة على ضبط الأعصاب وعلى قبول التحديات، اذ لا يبدو أن هذين العاشقين الحافيين قد أثارا اهتمام أى من المارة سواى. وسط الرصيف يعترضان زحاما لا مباليا، حولهما يدور الناس مثلما يدورون حول أى عائق عادى فى الطريق. فيبدو أنه منظر مألوف فى لندن وفى سائر العواصم التى لفظت أولئك السياح، وأنه قد صار من حق الرجل وفقا لمفهوم الحرية أن يجمع على أرصفة الشوارع بين وظيفة العاشق ووظيفة فانوس النور!

محمد عفيفي، تائه في لندن محمد عفيفي، تائه في لندن محمد عفيفي

القبلة الحانية



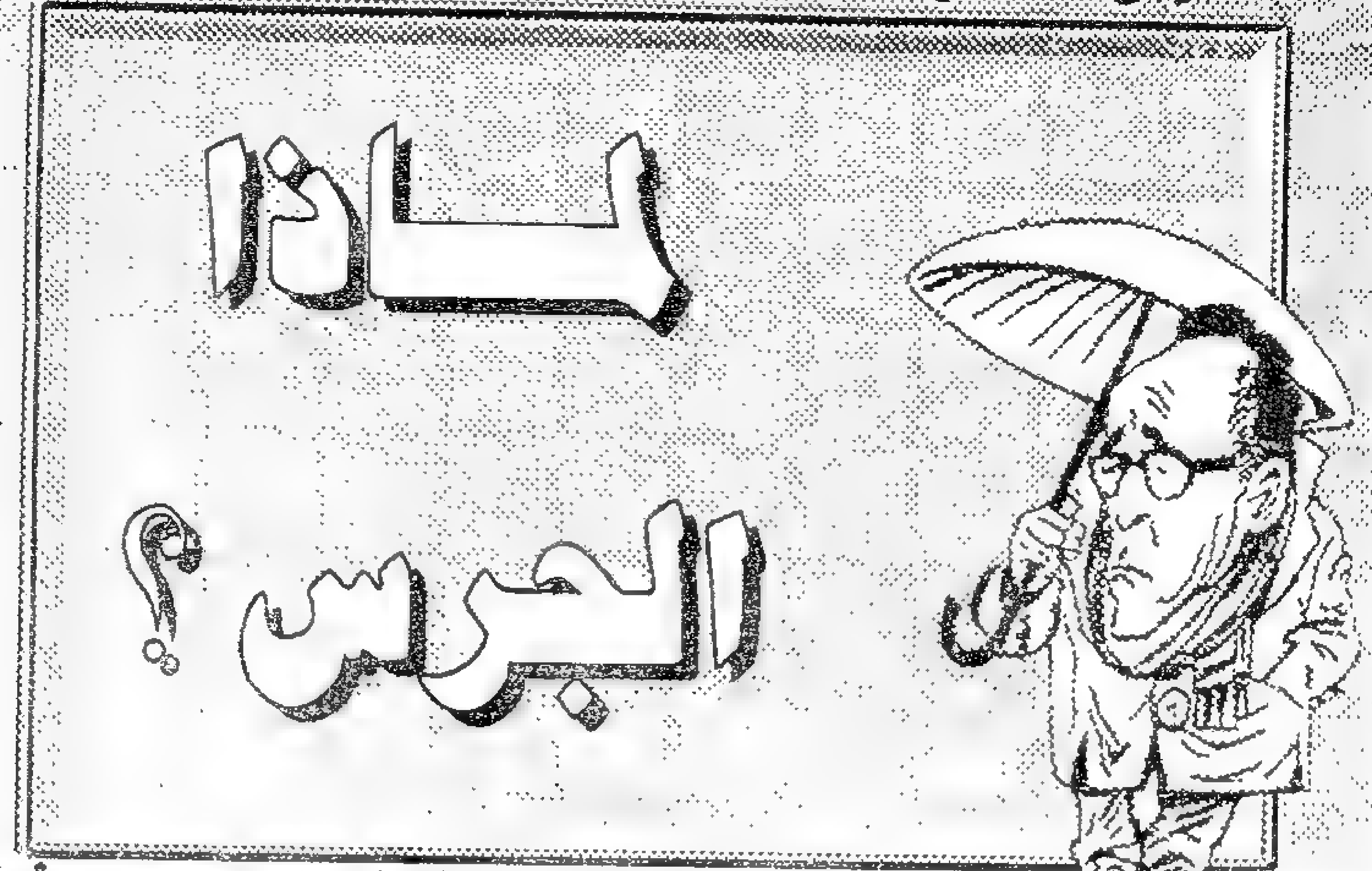
محمد عفيفي، تائه في لندن محمد عفيفي، تائه في لندن محمد عفيفي

انتفخت أوداجي بشدة - وإن كنت لا أعرف على وجه التحقيق ما هي أوداجي - أمام العيون الجريئة الزرقاء التي تطيل التفرس في وجهي، للأنثى السكسونية الجالسة أمامي في الاتوبيس. ولمسة عذبة حالمة تخالط تلك النظرات فأقول لنفسي أنه لابد سحر الشرق وقد بدأ يفعل فعله في قلوب بنات الغرب، ويا له من حمار ذلك الخواجة كيبلنج، الذي زعم في ذات نوبة استعمارية أن الشرق والغرب لا يمكن أن يلتقيا.

وفجأة رأيت رأس البنت المفتونة يميل إلى الأمام شيئا فشيئا حتى كاد يسقط عند صدرها، لولا أنها سارعت برفعه مع الرمش بالعينين بشدة، الأمر الذي فهمت منه - متنهدا بالعمق المناسب للاستسلام الفلسفي - أنه لا سحر شرقي هناك ولا يحزنون، وكل ما في الأمر أن

هذه بنت مجهدة تغالب النوم بعد يوم من العمل الشاق!

فالبنت الغربية تعمل مثل الولد تماما، طوال ثمانى ساعات من التاسعة حتى الخامسة، مع نصف ساعة عند الظهيرة تخطف فيه لقمة وفنجان قهوة، فلا عجب أن تتعب البنت وتعود إلى بيتها فى المساء كالجثة الهامدة، أى أنه جدير بك أن تطرد من دماغك تلك الفكرة السخيفة عن وجود أية علاقة بين منظرى الخاص وبين ذلك النوم الذى كبس على البنت فجأة!

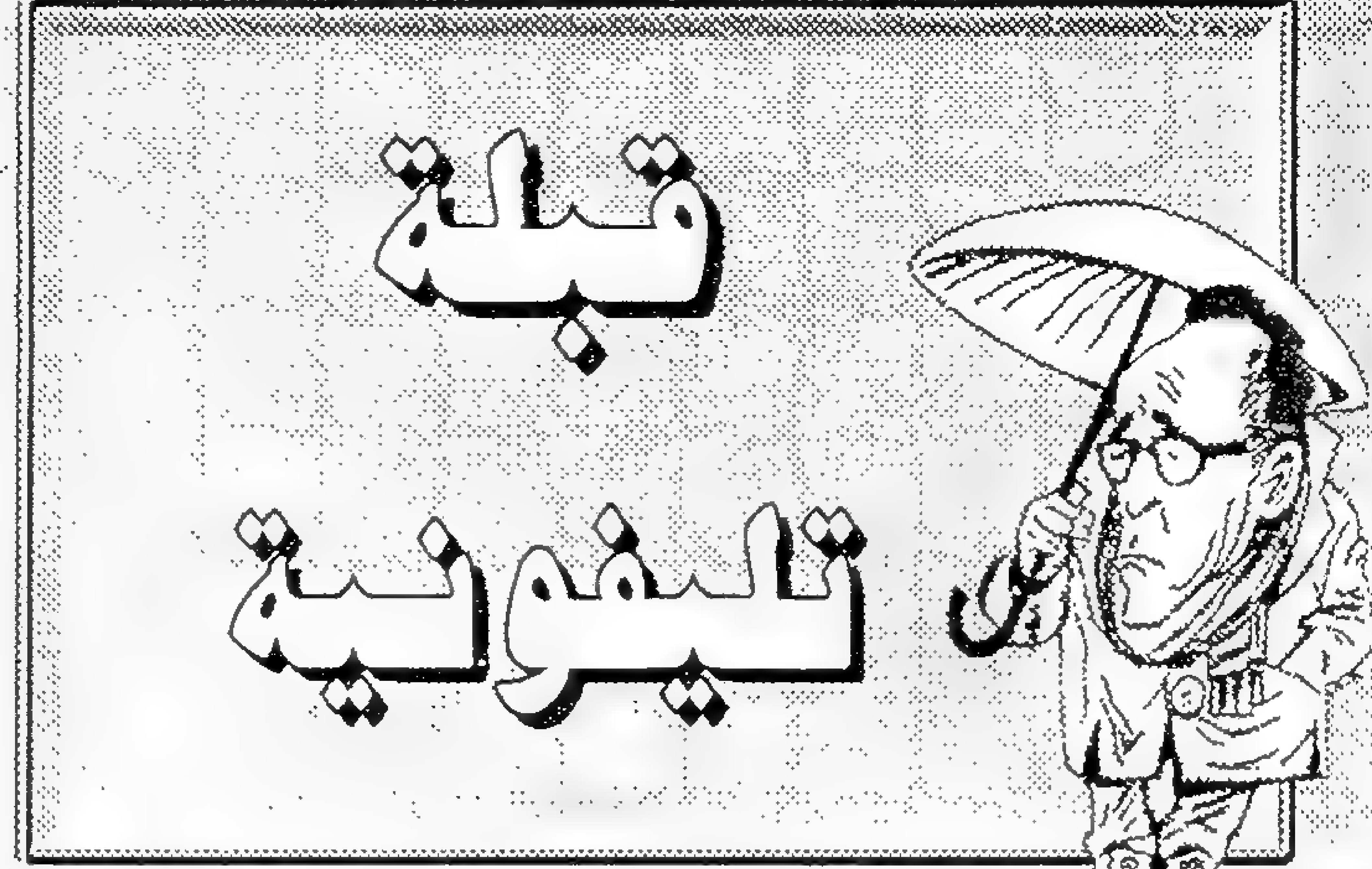


أكثر من مرة عزمت على أن أحذو حذو السائح العادى وأذهب للفرجة على تغيير حرس الملكة، ومنعتنى من تنفيذ الفكرة أسباب كثيرة أهمها بالطبع أن الدنيا كانت تمطر. هذا وأنا من ناحية أخرى لا أوافق فى قرارة نفسى على الفكرة ذاتها، حيث أن الملك الانجليزى فى صورته العصرية لا يحتاج فى نظرى إلى أى نوع من الحراسة، فمن الذى يخطر له أن يقتل الملك فى وجود رئيس للوزراء؟

وهذا يتأكد بالطبع اذا كان ذلك الملك ملكة، فليس ثمة من يفكر فى قتل الملكة غير مجنون هارب من المستشفى، وفى مواجهة مثل هذا الخطر لا أظن أن الملكة تحتاج إلى أكثر من بواب للقصر وكلب وولف. أما كل هذا العدد من الحراس بملابسهم المزركشة وقبعاتهم المضحكة فنوع من الاسراف الذى لا مناسبة له فى موجة التدهور

التى يتعرض لها الاسترلينى، ولكن القصر الملكى يصر فيما يبدو على أن يظل قصرا امبراطوريا حتى بدون امبراطورية، وهو اصرار لا يفترق كثيرا عن اصرار برنس مصرى سابق على أن يكون لسيارته سائق يلبس اليونيفورم والكاسكيت، يعطيه ماهيته فى أول الشهر ثم يبدأ فى اقتراضها منه من يوم خمسة!

نعم هى نفقات لا مبرر لها بالمرة، ويكون أحكم لو وجهت لتحسين حال بعض المواطنين المساكين، مثل الرجل الذى يقف على باب مخطة ميدان راسل وقد علق على صدره لافتة تقول للمبصرين إنه أعمى. أو للرجل الآخر الذى أقابله كل صباح فى شارع ستراند، طويل اللحية رث الثياب يتوكأ على عكازين يحملانه بسرعة غريبة إلى مهمة مجهولة لا يمكن بالطبع أن تكون الفرجة على تغيير الحرس!



لسبب لا يهمك كثيرا أردت أن أتكلم فى التليفون وقصدت إلى الكشك العمومى لكى أجده مشغولا، لا برجل يتكلم فى التليفون وإنما بشاب وفتاة يستندان عليه وقد التحما فى حال من العناق العنيف. وعلى أطراف أصابعها تشب المضروبة لكى تغمر وجهه السعيد بالقبلات، كارهة أن تترك جزءا منه وليس فيه أثر من شفتيها. وذلك الكشك ـ لعلمك ـ مصنوع من الزجاج الذى لا يحجب شيئا مما فيه، أى أنهما لم يدخلاه طلبا للاختباء وإنما لما فيه من هيئة الديكور الذى يجعل منهما أشبه بصورة فى برواز.

ودقائق مرت وأنا أنتظر أن يشبعا ويخرجا بلا فائدة، فماذا أفعل سوى أن أتنهد وأنصرف باحثا عن كشك آخر؟ وعلى مسافة مائة متر [illegible]فت خلفى فرأيت أن العمل مازال جاريا، وتمنيت لو أننى أجيد

الكتابة بالانجليزية لكى أكتب رسالة لمحرر التايمز، مقترحا فيها معاملة القبلة فى أكشاك التليفون مثل معاملتنا فى القاهرة للمكالمة التليفونية، وذلك بتعليق لافتة تقول أن مدة القبلة لا تزيد على ثلاث دقائق!



من رأيى أن الرجل لا يمكنه أن يقول - صادقا - أنه قد فهم مدينة لندن حق الفهم، ما لم يكن قد شرع من تلقاء نفسه فى الالتفات جهة اليمين كلما هم بعبور الطريق، ذلك الرأى الذى إذا سلمنا بصحته فيبدو أننى سأغادر لندن وكأننا يا بدر لا رحلنا ولا جينا! اذ هممت منذ قليل بالنزول عن الرصيف فرأيت على أرض الطريق كلمات كبيرة بالخط العريض الأبيض تقول لى انظر يمينك! فنظرت إلى يمينى لكى أرى أجمل ساقين تبرزان فى أجرأ صورة من أقصر ميكرو جوب، الأمر الذى جعلنى أشعر بالاعجاب الشديد ببلدية لندن التى أمكنها أن تنبهنى إلى المنظر بهذا التوقيت الدقيق! ومواصلا نظرتى اليمينية نزلت عن الرصيف لكى أسمع فرملة حادة لسيارة مقبلة، فقفزت إلى الخلف وقد تذكرت فجأة أن البلدية لم يكن عندها أية فكرة عن ذلك

الميكرو جوب عندما أمرتنى بأن أنظر إلى يمينى وإنما كانت تعرف أن سائحا مغفلا مثلى سوف يحاول عبور الطريق من هذه النقطة، ناسيا أن السيارات فى لندن ـ على عكس السيارات فى البلد التى وفد منها أيا كانت ـ تسير على يسار الطريق لا على يمينه!

زغرة حادة من السائق قابلتها بالذلة المناسبة لجلافتى، ثم سرت فى حال من الغيظ المتزايد من أولئك الناس الذين يصرون ـ بخلاف العالم أجمع ـ على أن يسيروا على الشمال. فلماذا يفعلون ذلك؟ هل يريدون أن يثبتوا للناس ـ مثلا ـ أنهم من طينة نفسية خاصة، وأن شيئا فى الحضارة البريطانية قد نجح فى تخليصهم من تلك العادة التى توشك أن تكون غريزية فى الجنس البشرى ـ عادة السير على اليمين!

مستبعد طبعا أن يكون هذا هو السبب، ومن السخف أن أحسم الأمر بقولى بأن عقلهم مركب شمال، ولذلك انتهزت فرصة وجودى فى أحد التاكسيات وألقيت بالسؤال إلى السائق الذى يحتمل أن يكون عنده الجواب، فتنحنح الرجل وشرع فى الاجابة بلهجة تدل على أنه قد سمع ذلك السؤال وسمعه وسمعه حتى سئمه إلى درجة الموت. وكانت اجابته مكونة من مجموعة فريدة حقا من حروف الراء والسين تساندها حروف أخرى، غير أنها للأسف لا تحتوى على أى كلمة من الكلمات التى مرت على فى أى من الكتب الانجليزية التى قرأتها. فشكرته متظاهرا بالفهم وغادرت التاكسى وأنا أشد جهلا بالسبب الذى من أجله يسيرون على اليمين، دعك من السبب فى أن الانجليز لا يعرفون الانجليزية.



زهقت ذات يوم من التوهان اللا ارادى فقررت أن أتوه على سبيل التغيير بكيفى! وكان ذلك فى ذات أصيل تراءت شمسه وراء غلالة من سحاب يمكنك أن تصفه على سبيل التجاوز بأنه شفاف، أشبه شىء - تلك الشمس - بخيال لامرأة تلمحه وراء الستار فلا تعرف إن كانت حسناء أو شمطاء ولكنها على العموم تشيع فى نفسك قدرا لابأس به من الدفء.

فى المحطة ركبت أول قطار صادفنى من قطارات ما تحت الأرض مفاجئا بعد حين بأنه قد خرج من تحت الأرض وبدأ يسير فوقها، وسط رقعة خضراء توشك أن تكون قطعة من ريف بلادى لولا أنى لم ألمح فيها أى نوع من الجاموس. ثم وقف القطار وبدأ كل الناس ينزلون فأدركت أنها محطة النهاية ونزلت مع النازلين، محطة هادئة

تحيط بها الأشجار مثل محطة المعادى عندنا، وتؤدى إلى مجموعة كبيرة من فيلات متشابهة عتيقة الطراز عجزت عن أن أقطع هل هى فاخرة أو غير فاخرة. وشارع بين صفين منها أغرانى هدوءه بأن أتمشى فيه إلى نهايته، لاسيما وقد لمحت عند تلك النهاية خلفية خضراء ربما كانت حقلا من الحقول التى أحبها.

فما كدت أوغل فى ذلك الشارع حتى بدأ يساورنى شعور مزعج يتنافى مع الهدوء الشامل المحيط بى، شعورى بأننى قد وضعت فجأة تحت المراقبة ومن جميع الجهات. عشرات من العيوان وراء الستائر المسدلة على النوافذ أحسست أنها ترقبنى، وامرأة فى مطبخها ـ وكانت نافذته بلا ستار ـ كفت عن العمل الذى تقوم به لكى تحملق إلى وقد تدلى فكها فيما يشبه الذهول. وشاب مقبل راح يتفحصنى بطريقة تتناقض كل التناقض مع ما ألفته من النظرات الانجليزية السريعة المتجاهلة. وطفل فى احدى البلكونات ما كاد يبصرنى حتى هب من مقعده كالملسوع وصاح بما معناه: بصى ياماما!

فضربت أمه على يده زاجرة اياه عن الاشارة إلى الناس، ولكن عينها قالت لى أنها ليست أقل اهتماما بالأمر عن طفلها، مثل سائر الأشخاص الجالسين حولها فى البلكونة والذين تركزت على أبصارهم فى نفس ذلك الاهتمام الذى لا يخلو ملمسة ريبة. وسرعان ما تقاربت رؤوسهم فى شكل مؤتمر صغير للفحص فى أمرى.

ـ ماذا يفعل فى شارعنا هذا الرجل الغريب؟

هكذا لابد أن يكون أحدهم قد تساءل، ولابد أن أحدا آخر قد أجاب:

ـ لابد أنه قادم ليزور أحدا.

- يزور من؟

- قد يكون مستر سميث؟

- ولماذا لا يكون مستر براون؟

- ولماذا لا يكون مستر هاريس؟

- ولماذا لا يكون مستر وليامز؟

- أوه نو! صحيح أن لها مباذلها الكثيرة منذ وفاة زوجها ولكنها لا يمكن أن تنحط إلى هذا الدرك!

ثم لاشك فى أنهم تحولوا بعدذلك إلى المناقشة فى جنسيتى.

- انه لا يبدو انجليزيا.

- هو ليس أبيض كالأوروبيين.

- وليس أسمر كالافريقيين.

- وليس أصفر كالآسيويين.

- ولكنه أجنبى قطعا.

فتلك هى مأساتى كما قلت ذات يوم، اننى أبدو أجنبيا أينما حللت! والداهية اننى فى ذلك اليوم كنت أعرج بعض الشىء، ولابد أنهم راحو يتناقشون فى تلك المسألة أيضا. بين رأى يقول بأننى أعانى من آثار قديمة لشلل الأطفال، ورأى آخر يقول اننى رقعت علقة حامية فى بار حقير، ورأى ثالث يؤكد اننى قد أسأت تقدير ارتفاع النافذة وأنا أقفز منها بالمسروقات! غير عالمين - سامحهم الله - ان السبب فى عرجى هو سفالة واحدة من بنى جنسهم، تاجر فى الأوكازيون قال لى وقد رآنى أختار حذاء متينا:

- خذ ده أحسن.

فأخذت الحذاء الذى رشحه وما فاتت على ساعة واحدة حتى كنت أعرج، وفتاة فى بلكونة أخرى رأتنى فصاحت قائلة جين! كرهت أن ترانى وحدها وأن يفوت المنظر أختها التى خرجت من جوف البيت مسرعة وهمهمة بين الاثنتين ثم ضحكة صغيرة مكتومة. فلعنت أبا الحظ الذى رمانى إلى هذا الشارع العجيب الذى يبدو من أمره انه لم يعرف الأغراب منذ عشرين سنة على الأقل.

فحمدت الله عندما وصلت إلى نهاية الشارع حيث يوجد ذلك الحقل الأخضر، تلك النهاية التى كانت لسوء الحظ نهاية بالمعنى الحرفى للكلمة. فالشارع مسدود بحاجز من الأسلاك الشائكة التى تقول لمن يعبرها إلى الحقل وقعة أبوك سودة! ومن ثم فليس أمامى سوى أن أعود من حيث أتيت، وسط نفس النظريات ونفس الهمهمات والمناقشات الحامية. ولاشك أن أمرى قد ازداد غموضا بعد أن عدت بهذه السرعة، لا زرت مستر براون ولا مستر هارى ولا حتى مسز وليامز!

ولكننى أعرف اننى قد أسديت خدمة لسكان ذلك الشارع وأعطيتهم بزيارتى هذه يوما يساعدهم فى الربط بين الأحداث، ولن أعجب اذا كانوا اليوم يختلفون على تاريخ وقوع الحادث أو ذاك فيقول أحدهم أنه حدث فى أغسطس ١٩٦٧ مستدلا على ذلك بقوله:

- بامارة الراجل الأعرج ما كان فايت!



وعلى أى حال فالسائق الانجليزى الذى يريد أن يدهسنى ولا يمنعه من ذلك إلا خوفه من العقاب، ظاهرة طبيعية تتمشى بسهولة مع فكرتى عن الرجل الانجليزى كواحد من الذين بنوا الامبراطورية على جثث الآخرين. إنما يستعصى على فهمى - وينرفزنى - ذلك النموذج الآخر للسائق الانجليزى الذى ما يكاد يرانى أصل إلى حافة الرصيف حتى يدوس الفرملة من نفسه ليتيح لى فرصة العبور، حتى وإن كان هو قد وصل إلى المفارق قبلى، وإزاء هذا الذوق غير المتوقع أرسم أنا على وجهى أعذب ابتساماتى الشرقية وأشير له بيدى بما معناه:

- لا والله ما يمكن! اتفضل أنت...

وازاء هذا الذوق من ناحيتى بيقرر هو أن يكون أكثر منى ذوقا

فيشير لى بيده الخاصة من وراء الزجاج مع ابتسامة غربية تقول:

ـ موش ممكن أبدا! حضرتك الأول..

فأعيد اشارتى ويعيد اشارته، ويضيع من وقتنا أكثر من دقيقة فى تلك المجاملات الفارغة بين الشرق والغرب. وأخيرا أقرر أن أقبل دعوته إلى العبور قبله استنادا إلى أنه هو الذى بدأ سلسلة المجاملات، وذلك فى اللحظة التى يقرر فيها هو أن يمر قبلى مادمت مصرا على أن أكون أكثر منه ذوقا. فأنزل من على الرصيف فى اللحظة التى يتحرك فيها، الأمر الذى يضطره إلى أن يفرمل مرة أخرى، وأرتد أنا إلى الرصيف كما كنت، ومن جديد نشرع فى مهزلة المجاملات السابقة.

نعم إنه يستحق منى كلمة ثناء، ذلك السائق المهذب الظريف، ولكننى أعترف لك بأنه كما أسلفت ينرفزنى. ففى ذلك الذوق المفرط ألمس عنصرا خفيا من السخرية الماكرة، بالاضافة إلى ذلك التشويه المقصود لفكرتى عن بناة الامبراطورية.

محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى



محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى ،تائه فى لندن محمد عفيفى

وأصارحك القول بأننى لم أر طول هذه الأسابيع فى لندن أى انسان يبدو من أمره أنه من بناة الامبراطورية، الأمر الذى يدل على أننى إما أتحرك فى الأماكن التى لا يوجد فيها أولئك البناة، وإما أنهم ظاهرة قد انقرضت من البلاد تماما.

لا يمكن أن يكون من بناة الامبراطوريات ذلك الرجل العجوز الذى رأيته فى حديقة ريجنت، جالسا على احدى الدكك وحوله نحو من خمسين حمامة تأكل من الحبوب التى ينثرها لها بابتسامة حنون لا أثر لأى نوع من التطلعات الامبراطورية.

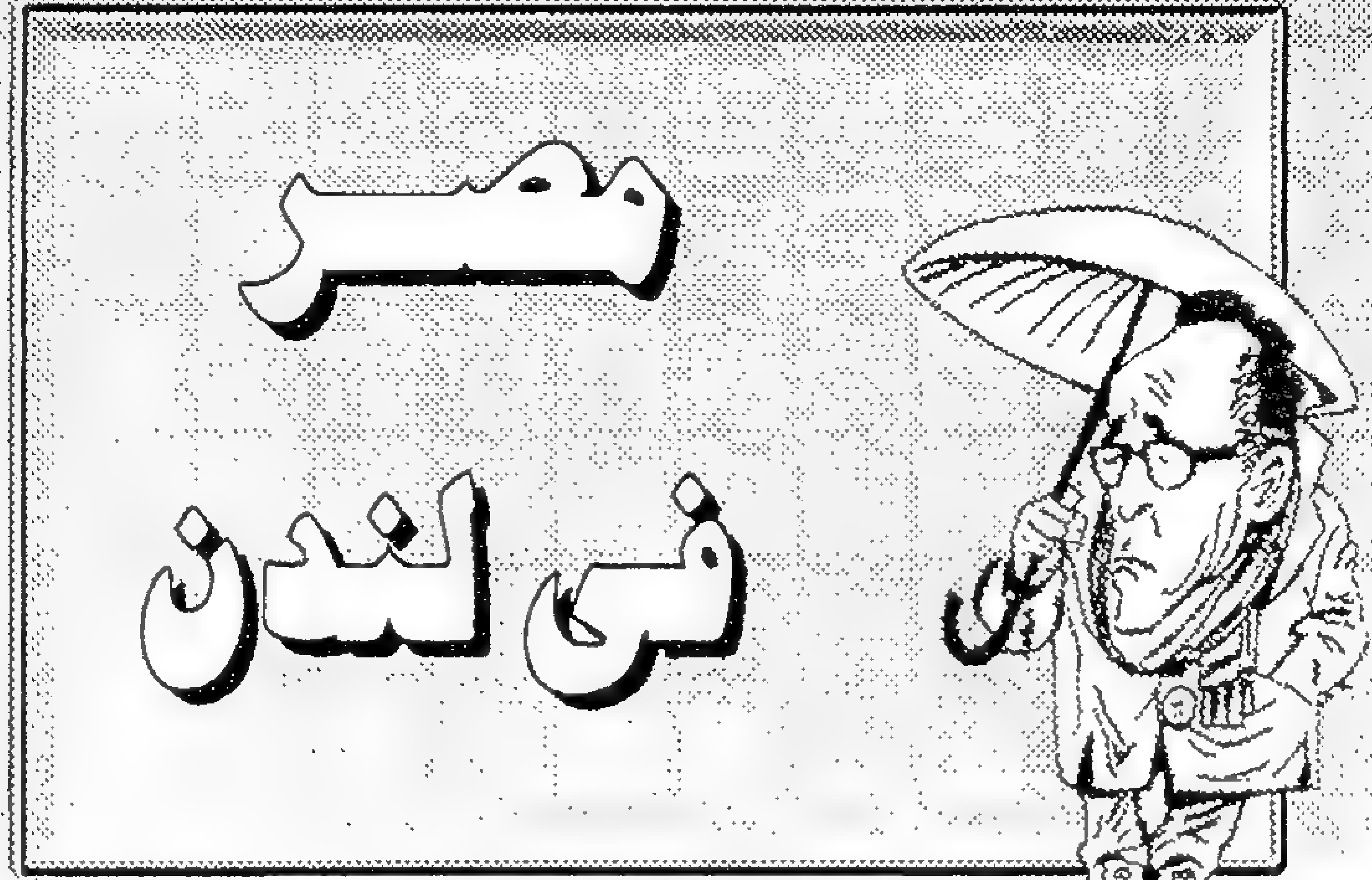
ولا يمكن أن يكون منهم ذلك الرجل الآخر الذى رأى باقى الشلن يسقط منى على الأرض فى محلات وولورث، فانحنى ليساعدنى على جمع البنسات البرونزية متلقيا شكرى بابتسامة عريضة تقول لى

العفو. وبالطبع لم أصل إلى تلك الحقيقة الخاصة بأنه ليس من بناة الامبراطورية إلا بعد أن عددت البنسات ووجدتها كاملة!

ولا منهم ذلك الرجل الذى جلس فى المترو المزدحم وعلى حجره طفله الصغير، الذى التحم - الطفل لا الرجل - مع طفل هندى يجلس فى المقعد المقابل على حجر أبيه الهندى الخاص. بالأيدى الصغيرة يتضاربان فى مزيج من الدعابة والخناق الطفولى، ذلك المنظر الذى ارتسمت له على وجه الأب الانجليزى بسمة تفيض باللاعنصرية الحلوة وبالتقديس المشكور للأخوة البشرية. فأين هذا الرجل من بناة الامبراطورية الذين داسوا فى الهند على أكثر من طفل هندى، غير حافلين باحتمال أن يكونوا قد أنجبوه بأنفسهم فى احدى الحملات على هذه القرية أو تلك؟

فيبدو اننى سأغادر لندن دون أن ألتقى بأى من بناة الامبراطورية، اللهم إلا اذا كان واحدا منهم ذلك الرجل ذو الأنف المعقوف، الذى زغر لى بشدة من وراء زجاج الرولز السوداء، مع اننى لم أفعل شيئا أكثر من اشارة أدعوه بها إلى الوقوف معتقدا انها سيارة تاكسى.

ومن السماء دوى أزيز لطائرة ركاب ضخمة، بريطانية من الغالب ما فيها من ألوان كثيرة موحية. فيها الأسود بلون زنوج افريقيا واستراليا، وفيها البنى الفاتح بلون الهنود فى آسيا وأمريكا، وفيها الأسمر الهادئ بلون المصريين والعرب، وفيها الأصفر بلون أهل الصين واليابان، وفيها الأحمر بلون دماء جميع الذين ماتوا ببنادق المستعمرين فى تلك البقاع!



ما كنت بالطبع لأغادر لندن قبل أن أزور متحفها الشهير، وهناك قصدت على عجل إلى القسم الفرعونى، مشتاقا فى غربتى إلى شىء يوحى إلى بأننى مازلت فى بيتى. وفى صدر القسم رأيت كتلة كبيرة من الصخر هى حجر رشيد، مجيد يا حجرى حيث تقف هناك فى صدر القسم ويسمونه حجر روزيتا بنفس الجلافة التى جعلتهم يسمون المسلة إبرة، وتقول الكتب إنهم سلبوه من الفرنسيين عندما هزموهم بقيادة وغد اسمه آبركرومبى، غير عالمين أنهم لو لم يسلبوه لأخذوه فيما بعد على سبيل الهدية من الباشا الفنجرى. ولعل هذا هو السبب فى أنهم حولوا اسمه إلى حجر روزيتا، تعميدا له باسم غربى لكى لا يتذكروا أنهم سرقوه كلما نطقوا بكلمة رشيد، ومجموعة هائلة من آثارنا تملأ أركان المتحف، من الأسورة التى كانت تستخدمها

الأنثى الفرعونية العادية فى تزيين معصمها، إلى رأس هائل من الجرانيت الأحمر لتحتمس الثالث ذات نفسه، وذراع طولها عدة أمتار من تمثال مكسور لرمسيس، وأسود امينوفيس رابضة فى صمت حزين وسط أصداء بعيدة لتراتيل كهنة آمون فى كتاب الموتى.

وموتى كثيرون فى توابيتهم المزركشة الواقفة مثل صف من الحرس، وفى صندوق زجاجى كبير ترقد مومياء لبنت مصرية غير معروفة. بصعوبة وجدت ثغرة أراها منها بين فخذين جريئين فى الميكرو جوب، طاردا من دماغى حكمة مبتذلة لأبى العتاهية عن الولادة للموت والبناء للخراب. ولاشك فى أن أفكارا مماثلة دارت فى دماغ ذلك الحشد من السياح وهم ينقلون البصر بين الميكرو جوبات وكفن البنت، التى لابد قد تهادت ذات يوم فى فستان من الكتان الشفاف، سالبة لب أكثر من ذكر مصرى ولهان.

مجيدة يا أيتها البنت المحنطة ويا حجر رشيد لا روزيتا، ويا ذراع رمسيس ويا رأس تحتمس، ويا كل قطعة فرعونية منهوبة فى لندن تصرخ لاهجة بالمجد الذى كان لنا!



كذلك ما كان لى أن أغادر لندن دون أن أرى مسلتى القائمة على شاطىء التايمز، مجيدة أنت يامسلتى حيث تقومين هناك شامخة رغم الغربة حاكية للعالمين العالمين قصة المجد الذى كان مجدنا. على شاطىء النيل منذ أربعين قرنا قبل أن ينجح أصحاب التايمز فى كتابة اسمه أو حتى مجرد النطق به، فهى صعبة بعض الشىء - كلمة تيمز - على رجل فرغ لتوه من التهام سمكة نيئة صادها بحربة من الصخر المسنون وغاصت منها شوكة فى لسانه وأخرى فى حلقه البدئى.

يسمونها هناك إبرة كليوباترا، مدللين بذلك على جهلهم الفاضح. أو على الأقل على ازدراء العلماء منهم لثقافة العابر العادى على رصيف فيكتوريا فهى من ناحية لا تمت إلى كليوباترا بأية صلة، اذ يثبت قبل مولد المذكورة بنحو من خمسة عشر قرنا، وهى من ناحية أخرى أكبر

بكثير جدا من أن تكون إبرة، مهما بالغنا فى تصور الحجم الذى كان لأى من الترزى أو الخياطة الفرعونيين.

بناها تحتمس الثالث فى هليوبوليس عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، جالسا فى ظلها وفى غفلة من حتشبسوت يحلم بأمجاد المستقبل فى مجدو والنهرين. وبعد قرنين من الزمان أضاف رمسيس الثانى إلى نقوشها بعض كلمـــات من عنده، ذلك التطفل الذى طالما وقع فى أحـــسن العائلات حتى - ولاسيما - اذا كانت ملكية. فلما غزا الاغريق مصر نقلوها من هليوبوليس إلى الاسكندرية التى جعلوها - لحبهم للطراوة - عاصمة رسمية للبلاد. وهناك تحولت من رمز دينى إلى مجرد أداة للزينة.

وخلال القرون التالية لا أشك فى أنها شعرت بقدر كبير من الوحشة والغربة والارتباك ازاء ما لا يبرح يتردد حولها من أصوات جديدة غريبة وكثيرة منها منكر هدير عجلات الرومان وتنهدات كليوباترا بين أحضـــان انطونيـو على ايقـا ع من صــرير أسنان أوكتوفيوس. ثم صليل سيوف عمرو بن العاص ونداء من فوق مئذنة ممشوقة كالمسلة يقول إن الله أكبر، ثم سنابك خيل الأتراك والمماليك بريين وبحريين، الأصوات التى ما لبثت أن خنقت فى فرقعات القنبر الفرنسى الذى نزل على الناس وما كانوا عاينوه من قبل.

كل ذلك شاهدته مسلتى فى صبر فرعونى تشكر عليه حقا، غير عالمة بتأشيرة الخروج التى تعدها لها أقدارها العابثة، اذ ولى حكم البلاد بائع سجائر من قولة اسمه محمد على وفى لحظة انسجام تركى برم شنبه وقرر اهداءها للشعب البريطانى العزيز متوهما رحمة

الله بأنه بذبحه للمماليك فى القلعة ورث كل شىء فى العزبة المصرية حتى مجد تحتمس.

وكان الغرض من الهدية مشاركة الانجليز فى احتفالهم بنلسون، تمجيدا لانتصاراته البحرية على فرنسا وأسبانيا دعك من انتصاره البرى على لورد هاملتون، وتمجيدا فى الوقت نفسه لانجليزى آخر اسمه سير رالف آبركرومبى، درس القانون كما يقولون ثم هجره مفضلا عليه شريعة الغاب، ومات فى أبوقير وهو يطرد من حول المسلة ما تبقى هناك من فلول بونابرت.

ما خطر قط لولى النعم وهو يبقشش على الانجليز بالمسلات أنهم على وشك تسجيل انتصار آخر لن يرتاح إليه كثيرا، انتصارهم شخصيا فى حرب المورة وتحطيم أسطوله فى موقعة نفارين، وهناك ظفرت أسماك البحر الأبيض بوجبة أكبر من اللازم من اللحم المصرى المملح بأحلام الباشا الدخاخنى، الذى اتضح آخر الأمر أنه لم يكن جنديا من معدن ممتاز.

غير أن صعوبة شحن مثل هذه المسلة الضخمة «٣٠٠ طن تقريبا» كانت سببا فى تأجيل الرحلة حينا من الزمن. ولم يعمد الانجليز إلى تنفيذ العملية إلا فى سنة ١٨٧٧، اذ صنع لها رجل انجليزى اسمه ارازموس ويلسون اسطوانة ضخمة تحميها من الماء وتسحب فيها من الاسكندرية إلى لندن، تلك الرحلة التى يدل مجرى الأحداث على أنه قد صحبتها من آلهة أجدادى ألف لعنة ولعنة. فلابد أنهم عقدوا اجتماعا سريعا برئاسة آمون ورع. ذلك الاجتماع الذى تمخض عن

انتـداب إله الريح «شـو» للسـفـر إلى خليج بسكاى ليكون فى انتظار السفينة. اذ هب هناك من الرياح ما عصف بتلك السفينة وقذف بها على صخـور الشـاطىء، ومـا أشك فى أن ايزيس قـد أسـهـمت فى استثارة غضب الأمواج بشىء من دموعها، وأن نقصا فى الفيضان ـ لهذا السبب ـ قد شكا منه المزارعون على شاطىء النيل.

وفى تلك العاصفة مات ستة بحارة من طاقم السفينة وهجرت ا لمسلة فى اسطوانتها على أحد الشواطىء المقفرة، وعام كامل مر قبل أن يعاودوا البحث عنها وينقلوها إلى لندن بمعرفة رجل اسمه جوز ديكسون، وهناك أقيمت على شاطىء التيمز غير بعيد من القصر الملكى، لكى تتمكن الملكة فيكتوريا من رؤيتها كلما خرجت لتمشى رجليها الملكيتين.

من ذلك اليوم صار اسمها إبرة كليوباترا وصارت احدى المعالم السياحية لمدينة لندن، وأمامها وقفت فى خشوع أتلو صلاة فرعونية صامتة. وأنثى سائحة صعدت السلالم القليلة المؤدية إليها وأسندت ظهرها عليها مع التقصع، باسمة للكاميرا التى يصوبها إليها صديق العائلة. وسائحات أخريات غرن منها فأقبلن وحذون حذوها: رافضات أن يعدن إلى بلادهن وليس فى ظهورهن أثر من ابرة جدى. والجميع يمرون بى ولا ينتبهون إلى، غير عالمين ـ الجهلاء ـ اننى الوريث الشرعى لتلك المسلة ولكل ذلك المجد الذى كان. فوددت أن أعتلى تلك السلالم وأشرع فى إلقاء كلمة تعرفهم بشخصى، لكننى آثرت أن أؤجل الأمر لحين لحظة من التفسخ النفسى تصيبنى فجأة فى هايد بارك.



على دكة على شاطىء القنال الصغير فى الضاحية اللندنية المسماة بفينيس الصغيرة، جلست أرقب بطة جميلة طافية على سطح الماء، باسما لها فى حنان بسبب ذلك الشعور المبهم بأننى أعرفها، وبأننى ألقيت لها ذات يوم لقمة سميط فى جزيرة الشاى بالقاهرة فشكرتنى بقولها كاك.

فعندما يقترب الشتاء سوف ترتعد لحظة ثم لا تبرح أن تبسط جناحيها الصغيرين المزركشين وتطير، عبر المانش تحلق لا أخذت فيزة ولا باسبور. وعبر مزارع الكرم فى فرنسا، عسى أن تقف لحظة لتستريح فوق طرطوفة برج ايفل. ووقفة أخرى فوق جبال الألب، متلفتة حولها تبحث عن جزيرة الشاى، ثم عبر البحر الأبيض فوق الأسطول السادس، أرجو أن تسقط على كتف أحد الكباتن علامة صغيرة ترقيه

درجة.

أما حاليا فهى تطوف مثلى فى لندن، وفى عينيها السوداوين البراقتين رأيت نظرة تأكدت منها أنها هى الأخرى قد عرفتنى وتريد أن تسألنى أين لقمة السميط. فهى بالطبع لا تعرف أن هذه الأشياء غير موجودة فى لندن، وأن هذا الترف الغذائى لا يوجد فى غير أسواق القاهرة.

ولقد كنت لأجلس ساعة أناجيها لولا الظروف التى تدخلت لتقطع جلستى والتى أعتقد انك قد عرفتها من نفسك، وهى ذلك الرذاذ الذى بدأ يتساقط معلنا أن السحب قد شربت من الماء أكثر من اللازم! فنشرت المظلة فوق رأسى وواصلت الجلوس فى عناد، وتذكرت ما قرأته فى كتيب سياحى عن أن الشاعر براوننج كان يقيم فى مكان ما على الترعة. فلربما يكون قد جلس على هذه الدكة وناجى مثلى جدة لهذه البطة، ثم قطع خواطره مطر كهذا المطر فملأ نفسه بالمرارة التى تفيض بها أكثر من قصيدة له! أنا شخصيا لو أقمت هنا عاما كاملا لانتهى أمرى ككاتب فكاهة، ولبدأت أكتب أشياء يتحول ازاءها شوبنهور نفسه إلى كبير المتفائلين!

وهزت بطتى ذيلها وجدفت بساقيها بسرعة لتحتمى هنا أو هناك من ذلك الاسهال السماوى، وبينما تبتعد التفتت وراءها نحوى وسمعتها تنادينى، قالت لى قابلنى بعد شهرين فى جزيرة الشاى، ولفتة ثانية إلى الوراء لتقول لى وماتنساش السميط! فلست أدرى من أين جاء كل هذا الحنين الذى فاض فى نفسى فجأة نحو الوطن الحبيب، وبنسات كثيرة تشخلل فى جيبى عددتها فوجدت أنها تكفى لحملى إلى المطار.



وإذا كانت لندن احدى عواصم الدنيا فقد بدت من الطائرة المحلقة كتلة من المبانى الصغيرة المتشابهة التى قد تكون بيوت ناس وقد تكون أعشاش نمل. وما لبثت المدينة كلها أن اختفت عندما صارت الطائرة فوق تلك الكتلة الرمادية من السحب المتكاثفة، التى لابد أنها عاكفة فى تلك اللحظة على قذف العالمين هناك بآلاف الكلاب والقطط. على كل من راكبى الرولز وآكلى السمك والتشبس، والخاطبين فى هايد بارك والشاحذين فى شارع اوكسفورد، والعجائز المتوقفات عند الأشجار بالكلب العزيز، والمادات أبوازهن العطشى لذكر بارد متردد، والمقاطيع المتقصعين والحفاة، والجريئة عيونهن وأفخاذهن فى كل مكان، والحمائم المتخمة والقطط الملظلظة ذات الأجراس، والتماثيل العالية المبتلة لرجال خرجوا ذات يوم يطاردون بالسيف ضوء الشمس، وأعلا

منها كلها ابرة جدى الشامخة على شاطىء التيمز، راوية للناس وإلى الأبد قصة المجد الذى كان مجدنا!



الفهرست

رقم الايداع:
٩٧/٣٦٣٤

الترقيم الدولى:
977-08-0604-8 I.S.B.N